

ثقافتنا في مفترق الطرق

أحمد سويلم

• هـــذا الكتـــاب •

يشهد التاريخ القديم والحديث على قدرة المثقف الواعى ودوره الفاعل فى تغيير وجه الواقع... والثورة على المألوف.. والتأثير على النبض الجمعى لدى الجماهير.

وأمام المثقف العربى اليوم فرصة ذهبية للقيام بدوره الخلاق لأنه الوحيد الذى يمكن أن يعبر بصدق عن قضايا مجتمعه..

وثقافتنا اليوم فى مفترق الطرق.. ولن تستطيع مواصلة مسيرتها بدون وعى المثقف لما يدور حوله..

وهذا الكتاب يشخص الحالة التى وصلت إليها ثقافتنا اليوم.. حيث تعانى مخططات عدائية على قيمها وأهدافها ومسيرتها وهويتها.. محاولا فتح آفاق العمل أمام المثقف العربى المعاصر.





تصميم الغلاف : نيفين صلاح

ثقافتنا

فى مفترق الطرق

الطبعـــة الأولى
١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٤م

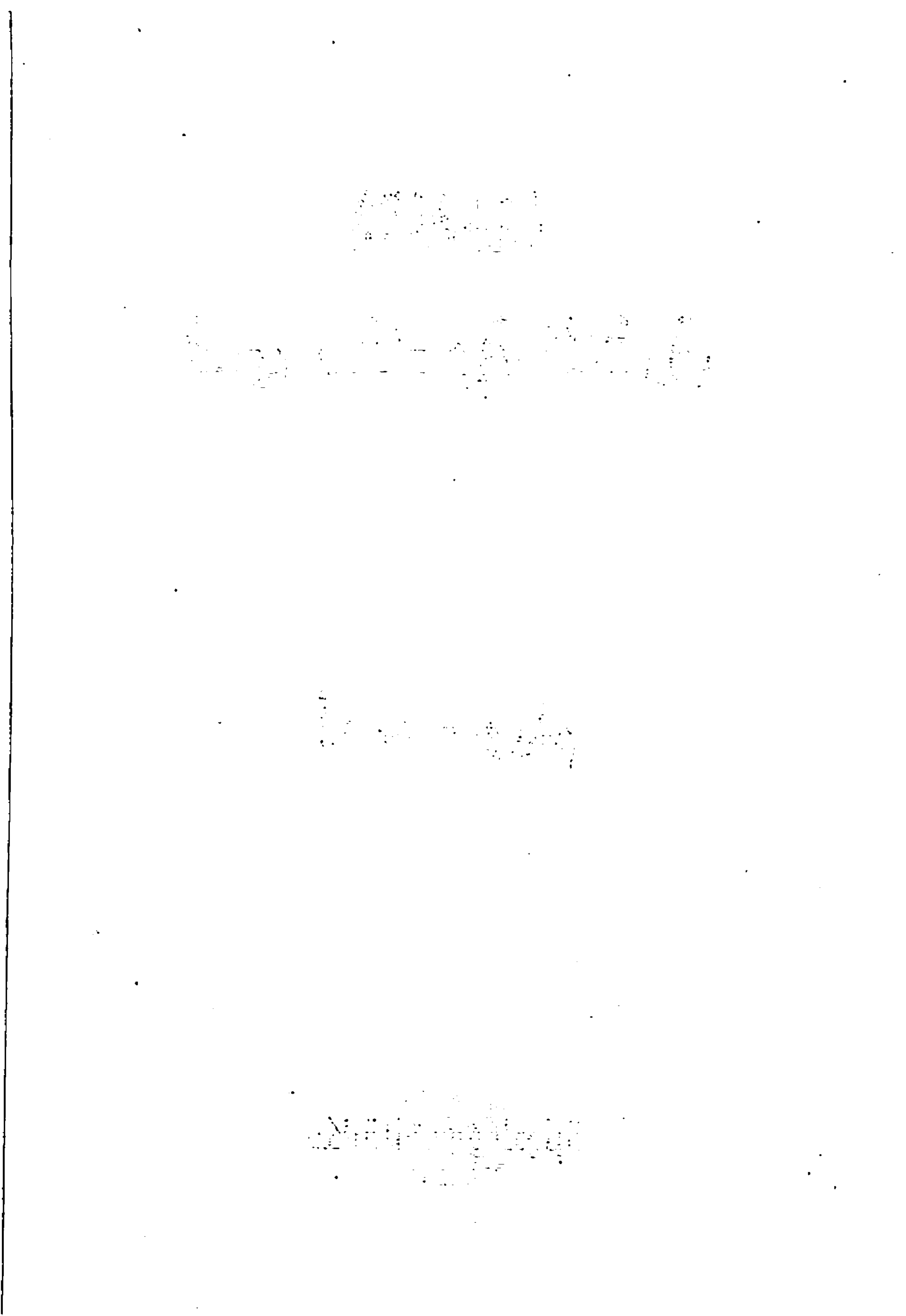


شارع الفتح - أبراج عثمان أمام المريلاند - روكسي - القاهرة
تليفون وفاكس: ٤٥٤٤٤٦٧ - ٢٥٦٥٩٣٩ - تليفون ٤٥٣٦٢٤٨
Email: shoroukintl @ hotmail. com
shoroukintl @ yahoo.com

ثقافتنا
فــى مفتــرق الطرق

أحمد سويلم





كلمة أولى

احتضن اتحاد كتاب مصر فى القاهرة مؤتمرًا أقامه الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب بعنوان (الثقافة العربية وآفاق المستقبل) فى الفترة ما بين ٩-١٢ ديسمبر٢٠٠٣م.

وكانت جلسات الحوار مكثفة ومفيدة حقًا.. خرجت بعده توصيات مهمة تؤكد فى مجملها الدعوة الجادة إلى إنقاذ الثقافة العربية وحمايتها من المؤامرات التى تحيطها وتصيبها فى مقتل.

وحينما علم الصديق الكريم الناشر عادل المعلم بذلك.. بادر إلى الاتصال بى . بصفتى سكرتيرًا عامًا لاتحاد كتاب مصر.. ومشاركًا فى حوارات هذا المؤتمر. وطلب أن أقدم لك ياعزيزى القارئ هذا الكتيب..

وانفتحت شهيتى بحماسة الغيور على ثقافته.. لأقدم هذه المحاولة التى أتمنى أن تكون خطوة على طريق المشروع الثقافى العربى الذى نأمل أن يتحقق قريبًا فى مواجهة المشروع الأمريكى الصهيونى الذى يرمى إلى محو وتشويه هويتنا العربية.

والله الموفق،،

أحمد سويلم

[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible] ٢٠٠٦م [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

(آية ١١ سورة الرعد)

* رب همة أحيت أمة.

(على بن أبى طالب)

* على قدر أهل العزم تأتى العزائم

وتأتى على قدر الكرام الكرائم

(المتنبى)

[illegible]

[illegible]

([illegible])

[illegible]

([illegible])

[illegible]

[illegible]

([illegible])

أما قبل

فقد جاء فى كتاب (كليلة ودمنة) أن الذئاب قالت للكلاب ذات صباح: دعوكم من هذه الحياة التى تستعبدكم وتجعلكم تحت رحمة الوفاء إلى قيم فاسدة.. وإلى أسيادكم وجيرانكم وتعالوا نتفاهم معًا أكثر.. ألا ترون أننا نشبهكم كثيرًا لأننا من جنس واحد.. وتربطنا علاقات قديمة.. ومصالح مشتركة.. الفارق الوحيد بيننا أن أجسادنا أضخم قليلاً من أجسادكم.. وهذا فرق شكلى لا قيمة له.. ويمكنكم بقليل من التفكير والغذاء الوصول إلى أحجامنا.. لأننا أبناء جد واحد.. وأطماعنا واحدة.. ونحن مستعدون للدفاع عنكم ضد أى عدو يعاملكم معاملة سيئة، ثم إنكم محاصرون فى دائرة ضيقة رسمها لكم أسيادكم.. أما نحن فأمامنا الأرض المتسعة التى أكسبتنا خبرة بالحياة.. ولا شىء يمنعنا إذا وافقتم أن نزودكم بهذه الخبرات التى تجعلكم أكثر وعيًا وحرية بمصيركم.

ووافقت الكلاب على هذه البداية المشجعة.. فاستأنفت الذئاب حديثها المعسول: ألا ترون أننا أكثر انطلاقًا منكم.. أما أنتم فقد وضع أسيادكم فى أعناقكم أطواق الاستعباد.. وهاأنتم هؤلاء ملتزمون بقيم الوفاء والطيبة والصبر وكلها أمور لا يشعر بها أحد غيركم.. ولا يقدرها أحد من أسيادكم.

هزت الكلاب أذيالها موافقة أكثر.. وهنا قالت الذئاب:

من أجل هذا ننصحكم.. ونحن كما تعلمون ليست لنا مكاسب خاصة من هذه النصيحة . ننصحكم أن تسلموا لنا حظيرة المواشى.

وهنا كادت الكلاب أن تتذمر.. لولا أن الذئاب أسرعت قائلة:

إننا نقصد فى الحقيقة أن تسمحوا لنا . نحن الذئاب . أن ندخل الحظيرة

مثلكم.. ما دمنا أصبحنا أصدقاء أحباء.. نحتفى معًا فيها.. ونأكل معكم ما طاب من لحومها.. ونقف معكم فى مواجهة أى خطر يهددكم.. ولا أظنكم بذلك تفعلون شرًا.. أو ترتكبون إثمًا.. وتأكدوا أننا بوجودنا هكذا معكم وبمرور الأيام على تعاوننا معًا.. ستصبحون ذئابًا مثلنا.. لا يمكن لأحد أن يمسكم بسوء.. وتأكدوا أيضًا أن ما نقترحه عليكم الآن سيفيدكم كثيرًا.. وهو من حقكم علينا.. وأنتم فى النهاية أحرار فى اتخاذكم القرار الذى ترونه فى صالحكم..!

اقتنعت الكلاب بما قالته الذئاب.. وحلمت بهذا اليوم الذى تصير فيه ذئابًا.. وسرعان ما سمحت للذئاب بالدخول إلى الحظيرة.. وكان أول شىء قامت به الذئاب أن فتكت بأصدقائها الكلاب قبل أن تفوز بالمواشى.

ما أشبه هذه الأمثولة القديمة بما يجرى اليوم فى الساحة العربية.. من محاولات تشويه الهوية العربية.. وتسلل المخطط الأمريكى الصهيونى فى المنطقة العربية بحجة نشر ثقافة العصر.. والديموقراطية المثلى..

ولأن ذئاب أمريكا تملك دبلوماسية المؤامرة.. وآلية الغزو الثقافى. ولأنها تملك تاريخًا معروفًا من أساليب التودد المقنعة التى تخفى السم.. ولأنها تدرك تمامًا التكوين العقلى لبعض الأدمغة العربية.. ولأنها تعرف أى الأحقاد يمكن أن تملأ القلوب لتجعلها أكثر سوادًا واقتناعًا بالتشبث بحماية الذئاب ضد من يهددها.. استطاعت أن تفوز بالحظيرة فى المناطق العربية لتكون لها أكثر من قاعدة عسكرية مدعية أنها تحافظ بذلك على استقلالها.

والركيزة العسكرية هنا تمثل منصة انطلاق لغزو ثقافى قادم.. خطط له من زمن بعيد فى وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة.. ونحن فى ظل هذا كله سعداء مبهورون بهذه الأضواء الزائفة التى تلون حياتنا . زيفًا . بالتقدم والتحضر والحداثة غافلين تمامًا عن الخطر الذى يكمن وراء ترحيبنا واحتضاننا لهذه الأضواء.. والذى يتمثل فى وقوعنا فى حبال الغرب..وبعدنا عن حضارتنا وهويتنا.

ويبدو أن أسلوب نظرية لعبة الأمم الذى عرفناه منذ منتصف القرن الماضى

لا يزال يعمل حتى اليوم ولم يبطل مفعوله.. فالذئاب تخطط والكلاب تنفذ.. والحظائر مساحات متاحة لخطط أمريكا والصهيونية على مقدرات العرب.. وهى مقدرات لا تتعلق فقط بالثروات الطبيعية وإنما تتعلق أساسًا بالفكر والحضارة والدين والهوية.. وكلها فى إطار الثقافة..

تلك هى الملامح العامة للواقع الذى تعيشه المنطقة العربية اليوم.. أما إطارها فقد حرصت أمريكا والصهيونية أن تلونه بلون السياسة.. بالرغم من أن داخل هذا الإطار كل مفردات الثقافة من علم وفن وأدب وعقيدة وحضارة.. والدليل على ذلك ما حدث فى العراق.. فقد أخذت أمريكا فى البداية تقنع العالم بأن بالعراق أسلحة دمار شامل.. ولأنها تفهم سيكولوچية صدام حسين وعناده.. أقنعت العالم أن صدام حسين يخفى هذه الأسلحة ولا يوافق على تدميرها.. ويلتقط صدام هذا الطعم بغباء شديد.. ويمكّن أمريكا من حصار العراق بقصد تدمير أسلحته وأمام ضعف وتخاذل العالم العربى والعالم الغربى.. احتلت أمريكا العراق.. فلم تجد أسلحة دمار شامل.. وصار هدفها البديل القبض على صدام حسين لأنه إرهابى يهددها ويهدد العالم.. ولما مكثت ما يقرب من عشرة أشهر دون أن تجد صدام.. أخذت باسم الحرية والديموقراطية تحطم حضارة العراق وتحرق تراثها.. وتضرب مقدساتها وكأنها مغول جديد يسوقها الحقد والكراهية لهذه الحضارة العريقة.

وبالطبع يصمت العالم على هذه الجريمة الحضارية.. التى تكاد تمحو ما يقرب من أربعة عشر قرنًا من الحضارة الإسلامية فى هذا البلد العريق..

إنها إذن حرب ثقافية ارتكزت على مبررات واهية واهمة.. يقف أمامها الضمير العالمى متخاذلاً لا يملك حراكًا.

واقعنا العربى اليوم إذن فى مفترق الطرق.. ويبدو أن الساسة قد تخلوا تمامًا عن مسئولية المقاومة.. وفضلوا أن يحتفظوا بعروشهم ومقاعدهم وولائهم تاركين الساحة للمثقفين الذين ألقى كثير منهم أسلحته منذ زمن طويل.

ولأن هذا الواقع يطلب المواجهة والوقوف للتأمل والتفكير. كانت هذه المحاولة التى بين يدك عزيزى القارئ.

ونرجو ألا يطمع القارئ فى أن يجد هنا نظريات سياسية أو آراء فى الاقتصاد والسياسة أو تحليلات تمس الموضوع من كبار المحللين.. فهذا كله مطروح فى الساحة ويمكن الحصول عليه بيسر وسهولة.

لكننى أثق فى تقدير القارئ لدورنا حين يجدنا نلتزم موضوع الثقافة العربية منطلقًا أساسيًّا نجمع أطرافها فى أيدينا ثم نصعد قليلاً فى فضاء الرؤية بالقدر الذى يجعلنا ننظر إليها من جميع جوانبها ومفرداتها.. ونطلع على محاولات الغزو والتسلل والتشويه والمحو.. من أعداء هذه الثقافة وبقدر ما نملك من رؤية كذلك.. سنحاول أن نرد على هذه المحاولات ونحبطها بعد أن نحدد ملامحها.. وندحضها.. ونضع أفكارًا واقعية قابلة للتنفيذ.. ممكنة الإنجاز أمام مثقفى الوطن العربى من المحيط إلى الخليج باعتبار أن مثقف اليوم لا بد له أن يكون أكثر وعيًا بمصيره ومصير أمته.. ولا بد له أن يقدم شيئًا إيجابيًا فى ساحة الفعل وإن كان سلاحه الكلمة.. وكفاه بعدًا وجفاء سنوات طويلة ظل فيها يلعق جراحه دون أية مقاومة يبكى حلمه المنكسر المهزوم فى ١٩٦٧م متغاضيًا عن أى ضوء من شأنه ينير طريقه..

ولا أزعم أن الثقافة تعيش بمعزل عن السياسة.. لكننا شبعنا وأتخمنا بما يقوله السياسيون.. الأمر الذى جعل المثقفين يتخلون بيأس وإحباط عن دورهم الفاعل فى صنع القرار المصيرى.

لكن التاريخ القديم والحديث يشهد على قدرة المثقف الواعى ودوره الفاعل فى تغيير وجه الواقع.. والثورة على المألوف.. والتأثير على النبض الجمعى لدى الجماهير.

ونرى أن أمام المثقف العربى اليوم فرصة ذهبية للقيام بدوره الخلاق بعد أن انحسر دور السياسى فى دائرة الضعف والولاء والخوف.. تلك الفرصة التى تعيد المثقف إلى نفسه ودوره.. فهو منحاز بتكوينه العقلى والوجدانى إلى المجتمع.. لأنه بشر يعيش مع البشر.. ولأنه الوحيد الذى يمكن أن يعبر بصدق عن قضايا مجتمعه ومشاكله أكثر من أى فئة أخرى.. ولأنه يملك الوعى والقدر الذى يجعله حرًا فى رأيه يناصره المجتمع فى كل ما يعبر عنه..

إن خطة هذا الكتاب تسير فى خطوط متشابكة.. لكنها تحاول من خلال متابعة هذه الخطوط تحقيق بعض الأهداف منها:

- فضح المخطط الأمريكى والصهيونى على قيم الثقافة العربية..
- المثقف العربى وضرورة الوعى بدوره أمام التحديات الراهنة..
- علاقة المثقف بالسلطة والمجتمع..
- الخطاب الإعلامى والثقافى وضرورة مناصرته للثقافة العربية..
- اللغة العربية بين الإعلام والتعليم..
- شبابنا والثقافة العربية..

تلك بعض أهداف هذا البحث.. ولا بد أن مسيرتنا سوف تتفرع عنها دروب كثيرة لا بد أن نلقى عليها الضوء..

وأحسب أن هذه المحاولة مهما أخلصت فى مسيرتها.. لن تحيط بكل أهدافها.. لأن ثقافتنا العربية قوية الجذور شديدة التأثير.. متنوعة الرؤى.. لكننا بقدر ما نملك من قدرة . سوف نخوض بإخلاص حرث هذه الأرض الخصبة .. والله معنا....

* * *

[illegible]

- [illegible]
- [illegible]
- [illegible]
- [illegible]

[illegible]

[illegible]

* * *

الثقافة العربية
الهوية ـ النمط ـ المحددات

- ولى وطن آليت ألا أبيعه ∴ وألا أرى غيرى له - الدهر - مالكا

(ابن الرومى)

- وطنى لو شغلت بالخلد عنه ∴ نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

(أحمد شوقى)

تعددت التعريفات الخاصة بالثقافة لدى العلماء والمفكرين.. وسبب ذلك يرجع إلى تعدد الرؤى.. فعالم الاجتماع يعرفها من واقع رؤيته للمجتمع.. وعالم السياسة يعرفها من وجهة نظره.. وهكذا..

حتى علماء الأنثروبولوجيا الثقافية يتفقون على أن الثقافة موضوع علمهم.. لكنهم يختلفون أيضًا فى تعريفها.. فعلى حين عرفها البعض بأنها (السلوك المكتسب).. عرفها آخرون بأنها ليست السلوك وإنما (تجريدات مأخوذة من السلوك) بل نرى البعض يقترب من المفهوم العام حين يعتبر الأشياء المادية مثل الأدوات والآلات والملابس والمنازل داخلة فى إطار الثقافة.. على حين يرفض آخرون ذلك ويقررون أن الثقافة تقتصر على الأفكار وأنماط السلوك.

ونلاحظ أن الإنسان - حتى القرن التاسع عشر - لم يكن لديه هذه الرؤى المختلفة للثقافة حتى جاء العلامة (تايلور) ليعرف الثقافة فى كتابه (الثقافة البدائية) بقوله: «الثقافة هى ذلك المركب الذى يشتمل على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعادات وغيرها من القدرات والعادات التى يكتسبها الإنسان بوصفه عضوًا فى المجتمع»[1].

---

(١) الثقافة الشخصية د. عاطف وصفى - دار المعارف ١٩٧٧م.

ثم يختلف العلماء فيما بعد.. لكن اختلافهم.. فيما نرى.. لا يبتعد عن جوهر هذا التعريف وإنما يضيف إليه أبعادًا أخرى.. أو يقلصها أو يجردها أو يقسمها على عناصر بقصد إخضاع هذا العدد الضخم من النظم والأنساق الثقافية إلى الدراسة العلمية.

ولا نريد هنا أن نشغل القارئ بالآراء المختلفة.. لكننا نود أن نحيط بإيجاز بخصائص هذا المصطلح (الثقافة) ثم نطبقه على ثقافتنا العربية.

إن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يمتلك القدرة على صنع الثقافة والحفاظ عليها.. وإن كان يشارك عددًا كبيرًا من الحيوانات فى المعيشة على ظهر الأرض.

ومن ثم فإن لكل مجتمع بشرى ثقافته الخاصة التى لا بد أن يتميز بها عن المجتمعات الأخرى.. صحيح أن محددات وأنماط الثقافة البشرية مشتركة بين المجتمعات المختلفة.. وقد تتفق فى كثير من الملامح.. لكن هناك من المحددات ما يجعلنا نميز بها ثقافة عن أخرى بحيث لا يمكن أن تتشابه مع غيرها.. ومن ثم يطلق على (شخصية) هذه الثقافة ثقافة (عربية) أو (أوروبية) أو (أمريكية) أو (روسية)....إلخ.

الثقافة إذن إنسانية بالدرجة الأولى.. أى أن الإنسان هو صانعها الأول وهو مطورها وهو المحافظ عليها.. والهادم لها أيضًا..

وهناك أضلاع ثلاثة للثقافة: العالم المادى . العالم الاجتماعى . العالم الفكرى والإبداعى..

ومن العسير فصل أى عالم عن العالمين الآخرين.. وإنما هى عوالم متداخلة مركبة ينتج عنها هذا التميز كبناء متكامل لأية ثقافة.

ولأن الثقافة تتضمن جانبين: جانبًا ثابتًا يتمثل فى ثوابت الحياة والمعتقدات والتراث وجانبًا متطورًا متجددًا مرنا يتمثل فى الأخذ بمسيرة التطور. فإن التغيير هنا لا بد أن يكون فى إطار القيم التى يأخذ بها المجتمع.. بحيث لا يؤثر هذا التغيير بالسلب على هذه القيم.. ومن ثم وصفت الثقافة بأنها متغيرة ومتصلة..

ويجمع الباحثون على أن الحرب العالمية الثانية كانت نقطة انطلاق واسعة لبحوث الهوية الثقافية للمجتمعات المختلفة.. حاولوا فيها وضع المحددات والأنماط المختلفة للتمييز بين الهويات المختلفة..

وفى مجتمعنا العربى ساد لفترة طويلة مصطلح (القومية العربية) لتشمل النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.. لكن هذا المصطلح قد انهار بانهيار الحلم العربى الكبير فى ١٩٦٧م..

وقد أحدث هذا الانكسار انقسامًا بين المثقفين.. فقد رأى فريق منهم ضرورة مقاومة مسيرة هذه القومية وإبراز أخطاء هذه المسيرة والبحث عن نموذج آخر شرقى أو غربى يملأ هذا الفراغ.. فى حين تمسك فريق آخر بهذه الفكرة داعيًا إلى مداواة جراحها؛ لأنها السبيل الأوحد لوحدة العرب..

ثم تتصادم الرؤى.. ليذهب كل فريق إلى مكمنه تاركًا الساحة للساسة وللغزو الصهيونى الأمريكى يفعلون ما يرونه فى مصلحتهم الخاصة..

ولا نريد أن نتتبع مسيرة التراجع عن فكرة القومية.. فهى معروفة لدى الجميع لكن الأمر قد اتخذ رداء جديدًا فى مصطلح جديد هو (الهوية) التى تعنى - مصطلحًا - شخصية وخصوصية ووجودًا منفردًا للشخص والمجتمع..

وأخذ هذا المصطلح ينتشر هنا وهناك ليشمل المحددات والأنماط الخاصة بشخصية مجتمع ما بحيث يختلف بها عن أى مجتمع آخر..

وتعنى الهوية أكثر سمات الشخصية شيوعًا فى أى مجتمع للوصول إلى صورة تجمع هذه السمات..

وقد كثرت دراسات الهوية بعد نكسة ١٩٦٧م ويمكن تقسيم الدارسين إلى فريقين: باحثون مصريون وعرب.. وباحثون إسرائيليون وغربيون..

كانت أبحاث المصريين والعرب ينقصها المنهج العلمى الدقيق بل هدفت إلى النقد الذاتى وجلد النفس.. على حين كانت الأبحاث الإسرائيلية والعربية تهدف إلى التشويه المتعمد للشخصية العربية..

ويمكننا تيسيرًا للمضى فى مسيرتنا أن نحدد إطارًا عامًا للهوية العربية الثقافية على هذا النحو:

- الوحدة الجغرافية للمنطقة العربية.. مع ملاحظة أن هذا العنصر لا يمكن أن يقوم وحده ركيزة للهوية.. ما لم يملك مرونة التغيير والتطور فى البيئة والإنتاج الزراعى وتضاريس الأرض..
- الحضارة الفكرية الخاصة بالمجتمعات العربية منذ القدم حتى اليوم.. تلك الحضارة التى أثرت فى العالم كله فى عصور الازدهار ثم حدث أن تراجعت وانتكست وصار الغرب يصدرها لنا على أنها حضارته الخاصة..
- التدين.. فالوطن العربى مهد الديانات السماوية.. وقد استطاع هذا المجتمع الكبير أن ينشر التسامح الدينى وينبذ التعصب.. وبالطبع صاحب هذا التدين بعض الخرافات والبدع التى ليست من الدين فى شىء، وانتشرت بعض المعتقدات الشعبية فى المجتمع الريفى والصحراوى.. بما سبب انتشار الأمية فى المتجمع العربى.. وبالرغم من ذلك يمتلك الشعب العربى قوة إرادة قوية فى الحفاظ على المقدسات الدينية.. ومحاربة التعصب والبدع والخرافات..
- الانتماء والوطنية.. ويرتبط ذلك من طرف خفى بالتدين.. فحب الوطن من الإيمان ومقاومة العدو إما بالنصر أو الشهادة..

ولا شك أن الوطن العربى قد تعرض فى النصف قرن الأخير لحملات مسعورة بقصد التشكيك فى الانتماء الوطنى سواء من داخل المجتمع أو خارجه.. وقاد هذه الحملات صحفيون وكتاب غربيون خضعوا لسيطرة الصهيونية العالمية خاصة بعد النكسة ١٩٦٧م.. ووصفوا الشخصية العربية بأنها فاقدة الملامح وأن العرب لا يفهمون سوى لغة القوة.. ولهذا فإن اتباع سياسة الردع والعنف معهم هى الأسلوب الأمثل وخداع الذات.. والعرب بالمقارنة بالإسرائيليين كسالى جبناء خونة.. ومستوى ذكائهم منخفض.. وعلى الجملة هم أدنى من الإسرائيليين[1].

---

(١) السيد ياسين.. الشخصية العربية بين المفهوم الإسرائيلى والمفهوم العربى (الأهرام ١٩٧٣م).

- اللغة.. حيث ترتبط اللغة العربية بأفراد المجتمع العربى ارتباطًا وثيقًا.. والمعروف أن تأثير اللغة فى إيجاد الأمة المترابطة ناشئ علميًا من أنها أداة الثقافة وعدوى الأفكار والشعور. فاللغة هى الأفكار والأحاسيس والانفعالات، وهى ليست مفردات جامدة ولكنها مناخ عام مرتبط بثقافة الأمة وآدابها وعقيدتها.

- العادات والتقاليد التى تعتمد على طبيعة الشخصية العربية ومكوناتها فى ممارسة الحياة والمأكل والملبس والسلوكيات، وترتبط هذه العادات والتقاليد بميراث طويل حضارى.. وعقائدى يختلف عن ميراث وعقائد أى مجتمع آخر..

- وحدة الثقافة.. وخصائص الثقافة العربية ذخيرة، مشتركة من الأفكار والآداب والمشاعر والطموحات والإبداعات تؤكد القاسم المشترك الأعظم بين الأفراد والجماعات العربية..

- وحدة التاريخ المشترك.. فما عانته المنطقة العربية على مر التاريخ من أطماع الغازين والمحتلين والمحتكرين يدل على هذه المعاناة المشتركة، والحق أن العرب ـ ككل الأمم ـ يشعرون بعمق أثر هذا الماضى وارتباطه بحاضرهم، ولا يعنى تذكر الأمجاد العربية أننا نتباكى عليها.. وإنما هى تذكرة للحاضر وللأجيال القادمة.. بما يدفع الجميع إلى العمل والفعل الجاد..

- وحدة المصير.. ونقصد به ذلك المأزق التاريخى الذى تقف أمتنا على حافته اليوم.. إنها تتعرض للأطماع السياسية وللغزو الثقافى بقصد تفتيت وحدتها وتشرذم أطيافها بما يمهد للأطماع الأجنبية سهولة التسلل إلى قلبها.. من ثم فإن الخطر مشترك.. والتحدى ضرورة ملحة.. والمقاومة أمر لا يحتمل التردد.

تلك أهم ملامح ومحددات الثقافة العربية والتى تتطلب من المثقفين الوعى بها،ليس من قبيل رفع الشعارات الشكلية وإنما الدخول إلى عمق مضمونها الذى يلزمهم بضرورة التوحد فى جسد واحد.

وهناك حكاية رمزية تقول: إن أعضاء الجسد رفضت ذات يوم أن تعمل أى شىء.. فالذراعان لا يرفعان اليدين.. والقدمان ترفضان المشى..

قالت القدمان: لماذا نركض هكذا طوال النهار نبحث عن غذاء للمعدة التى لا تكتفى أبدًا..

قالت الذراعان: نعم.. ولماذا يجب أن نعمل ساعة بعد ساعة فى حفر التربة والرفع والطبخ لتتمكن الأيدى من رفع الطعام وملء هذه الجعبة الشرهة الكسول.

وأضافت عظام الفم والأسنان: ولماذا يجب أن نستمر فى المضغ والطحن كلما طالبت المعدة بطعامها وهى لا تكف عن مطالبها أبدًا.. فلتقم المعدة بعملها وحدها. عندئذ أجابت المعدة: صحيح أن لدى رغبة عظيمة فى الاشتهاء تجعلنى مدينة لكم جميعًا فى إطعامى.. ولكننى أرسل هذا الغذاء من خلال الجسم إليكم جميعًا فإذا لم أطعم لا يمكن لأى منكم أن يؤدى عمله ولن ينمو عضو منكم نموًا طبيعيًّا جيدًا.

ومغزى هذه الأمثولة واضح.. فإن الوطن هو الجسم الذى يحتاج إلى معاونة جميع أعضائه؛ لكى ينمو ويستمر ويقوى ويقاوم.. فلو تخلى عضو عن وظيفته أصاب الجسم خلل شديد..

وأحسب أن المثقفين يمثلون أقوى وأفضل أعضاء الجسم ؛ لأنهم العقل المفكر الذى يمكن أن يقدر ويحلل ويضع الرؤى الصادقة ثم يرسل إلى المخ الذى عن طريقه أيضًا يضخها بعد التحقق من فائدتها فى صورة وسائل سمعية وبصرية وحسية إلى كل أعضاء الجسم فيعمل الجميع فى منظومة واحدة..

إن نظرة متأنية فى محددات الهوية الثقافية لنا.. نجدها تقوم على مزج العروبة بالإسلام.. ومن ثم تتميز هذه الهوية بهذا المزج عن أى هوية أخرى..

وقد اجتهد الكتّاب القدامى والمحدثون فى تعريف الهوية.. لكنهم يجمعون - برغم اختلاف نظرتهم - على أنها خصوصية الفرد أو المجتمع عن أفراد أو مجتمعات أخرى.. من حيث القيم والمعتقدات والموروثات والتراث بحيث يصبح للمجتمع أو الأمة ما يميزها عن غيرها.. ويطبعها بطابع حضارى خاص.

جدل حول المعاناة العربية من هويتها

فى رأينا أن المكونات الأساسية للهوية الثقافية العربية ليست هى المسئولة عما يعانيه الوطن العربى من تخلف.. بل نكاد نجزم أن أهم أسباب هذا التخلف تعود إلى الانبهار والتقليد والمحاكاة العمياء..

وقد انقسم المثقفون حول ماذا نأخذ وماذا نرفض من ثقافتنا وثقافة الآخرين، ونرى أن الأمر يحتاج إلى مزيد من الوعى بثقافتنا التى تعتمد على الثوابت الرائعة فى حضارتنا وميراثنا العريق..

وأحسب أننا لا بد أن ننقى تراثنا من هذه الشوائب التى تسىء إلى هويتنا.. ونعيد استقراءه بوعى كبير. ونأخذ منه كل ما يستطيع الصمود فى تيار العصر.

إن تحديات العالم اليوم تفرض علينا أن نكون أكثر توازنًا وتجردًا..فنبقى على المناطق المضيئة من تراثنا.. وعلى حركات التمرد على التدخل الأجنبى.. وعلى كل ما يضيف إلى هويتنا من قوة وخير وجمال.. ونرفض ما يسىء إلى هذه الهوية من تراثنا من جمود وتطرف وضيق أفق..

ومن ثم نحافظ على قيمنا الأصلية التى تؤكد قدرة العربى على صنع الحياة الكريمة..

فإذا ما فعلنا ذلك ـ فى تراثنا ـ جاء دور الاستفادة من ثقافات العالم بالقدر الذى يضيف ولا يمحو.. ويضىء ولا يشوه.. ويعلى من كرامتنا ولا يحط منها.. ويحدث الحوار لا الصراع.. ويساعد على المسيرة ولا يسبب العجز.. وينشر العلم لا الأمية.. ويعدل من السلوك إلى الأفضل لا إلى الأسوأ.. ويزيد من الانتماء لا الجفاء.. ويتفاعل بالإيجاب مع ثقافات العالم ولا يرفضها.. ويمنح مزيدًا من الحرية ولا يصادرها.. إلى نهاية هذه الأفكار التى نحافظ من خلالها على هويتنا دون الانخراط فى ثقافة الآخرين..

وهناك أمر جدير بالملاحظة.. ذلك أن المجتمع العربى حين يتخلى ثقافيًا عن

هذه المحددات والملامح الإيجابية.. إنما يترك للآخرين أن يحددوا مصيره وثقافته.. وسلوكياته وملبسه ومأكله.. وهذا ما نخشاه من انبهار المثقف بالغرب.. والحداثة.. وما بعد الحداثة وغيرها من المصطلحات التى تغزونا كل يوم وكل ساعة..

وبعيدًا عن الأيديولوچيات.. يمكننا أن نتذكر أن الهوية الثقافية العربية إنما تعبر عن حاجات المجتمع العربى من المحيط إلى الخليج.. وعلينا أن نحافظ على محدداتها وأنماطها وأفكارها.. بعيدًا عن التغريب والتعلق بأذيال العولمة.. دون أن يكون لنا دور فعال فيها.. وأن نتصدى بشكل واضح لكل من تسول له نفسه أن ينظر نظرة دونية إلى هذه الهوية بحجة انتمائه إلى الهوى الخاص بالمجتمع الغربى..

ويبدو أن الخطر القادم بقصد التغيير الثقافى سوف يحل علينا بعنف إذا لم ننتبه إليه..

فالمعروف أن التغيير الثقافى يمكن أن يؤثر فى مضمون أو بناء ثقافة معينة ويعتمد على الانتشار والابتكار. أى النقل من ثقافات مختلفة.. والقدرة على الابتكار بعد هذا النقل.

إلا أن المعتاد أن يكون هناك ترابط بين هذين العاملين.. وتعرف الطريقة التى يتم بها التحضير الثقافى باسم العملية الثقافية، حيث يتحول بمقتضاها النظام الثقافى القائم فى المجتمع ومعتقداته ومعارفه وأدوات العمل فيه إلى نظام مختلف..

ويرى بعض المفكرين فى هذا المجال أن التغيير الثقافى يتم فى ظروف محددة منها:

- إذا لم تستطع الموارد الثقافية المتاحة أن تشبع الدوافع الاجتماعية.
- إذا تم استيعاب وفهم الحلول الجديدة والمقترحة.
- إذا أمكن تحقيق الاستجابات اللازمة.
- إذا بدا أن العناصر الجديدة يمكن أن تكون أكثر إشباعًا من العناصر القديمة.

من هنا علينا أن نتيقظ لما يحاك حولنا من رغبة لتغيير محددات ثقافتنا اعتمادًا على إشباع رغبة المثقفين العرب فى الخروج إلى ثقافة الغرب باعتبارها لديهم النموذج الأمثل للثقافة والتقدم.

لا بأس إذن بأن نأخذ وننتقى ونصطفى من عناصر الثقافة الغربية بالقدر الذى يضيف ولا ينقص من هويتنا الخاصة..

* * *

[illegible]

[illegible]

☆ ☆ ☆

المخطط الأمريكى
سياسى أم ثقافى

- يبقى الباطل إذا غفل الحق عنه.

(الإمام محمد عبده)

- إننا نعيش فى عالم غريب أصبح فيه كل شىء ممكنًا.

(بلزاك)

- ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدوًا له ما من صداقته بد

(المتنبى)

فى حياة الأفراد توضع خطط قصيرة المدى مهما نظر إليها على أنها طويلة المدى..إذ أن عمر الإنسان محدود بعدد السنين التى يعيشها.. أما الدول والمجتمعات فتضع خططها لتستغرق سنوات طويلة قد تمتد إلى قرن من الزمان..

والخطة توضع لكى تحقق هدفًا أو أهدافًا معينة.. وخطة بلا هدف ينقصها الكثير. وهدف أيضًا بلا خطة لا ينظر إليه ولا هو يتحقق..

وأزمة الإدارة دائمًا . فى الدول المتخلفة . أنها تضع الأهداف ولا تضع الخطط التى تصل وتحقق هذه الأهداف.. وتكون النتيجة عدم تحقيق أى هدف فى غياب الخطة بل يحدث التخلف عن ركب التقدم..

وفى حياة الدول تحدث الكوارث والزلازل السياسية والاقتصادية والعسكرية..ثم يصفى الموقف وتسقط من الأيدى مفردات كثيرة.. وتبقى مفردات أخرى تبنى عليها مصير الدول..

حدث ذلك فى أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) حيث كان يجب إعادة ترتيب العالم بما يتفق مع مصالح الدول المنتصرة فى الحرب.. خاصةً بريطانيا وفرنسا..

ثم حدث ذلك مرة أخرى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) حيث كان يجب إعادة ترتيب العالم بما يتفق مع القطبين العالميين: أمريكا والاتحاد السوفييتى..

بل أخذت أمريكا تسعى جاهدة لتقليص دور الاتحاد السوفييتى، لكى تصعد هى على قمة العالم وحدها سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا..

لقد وضعت خطتها طويلة المدى منذ أكثر من نصف قرن من الزمان.. فواجهت بقوة الزحف الشيوعى وطورت أسلحتها العسكرية لكى تضمن فرض قوتها ونفوذها فى أى مكان من العالم.. وحثيثًا حثيثًا أخذت تطور علاقاتها مع العرب - خاصة دول النفط - بأن تقيم قواعدها العسكرية بحجة الدفاع عنها وأن تستنفد طاقة هذا النفط لصالحها.. وصارت أمريكا أقوى القطبين.. بل سعت إلى فرض نموذجها الثقافى والإعلامى والمعرفى إلى جانب نموذجها الاستهلاكى من أجل تحقيق الحلم الأمريكى وهو السيطرة على العالم..

وكانت أمريكا تدخر المنطقة العربية حتى تتفرغ تمامًا من تأكيد تفوقها ووجودها.. وفى تصورها أن خطرًا ما لن تخشاه من هذه المنطقة، خاصةً بعد أن أمنت سطوتها بالنفط والقواعد.. وأمنت وجودها بوجود إسرائيل شوكة تهديد فى جنب العرب..

إن أمريكا تدرك تمامًا أن السوق العربية يمكن أن تنعش اقتصادها حينما تصبح هذه السوق عميلاً أساسيًا لأمريكا..

وبالتالى أسرع أثرياء العرب إلى وضع أموالهم فى بنوك أمريكا بعد أن حذرتهم أمريكا من خطر مصادرتها بواسطة حكّام العرب.. وبدلاً من أن يستثمر هؤلاء الأثرياء أموالهم فى بلادهم.. استثمروها فى الغرب..

وكانت ضربة القدر التى انتظرتها أمريكا لتدخل بثقلها إلى الساحة العربية.. فما حدث فى ١١سبتمبر٢٠٠١م أعطى إشارة البدء فى المخطط الأمريكى للمنطقة العربية..

لقد جاء هذا التاريخ والعالم لقمة سائغة فى فم أمريكا..

صحيح سارت الهيمنة الثقافية الأمريكية فى خط متوازٍ مع الهيمنة العسكرية والاقتصادية،لكن أمريكا استطاعت أن تجد المبرر الكافى للدخول بثقلها إلى منطقتنا.. وكانت من قبل تدخل المنطقة كلما لزم الأمر.

بدأ ذلك فى الخمسينيات من القرن الماضى بواسطة السينما الأمريكية حينما بدأت هوليوود تصدر للمنطقة أفلامها وأبطالها خاصة تلك الأفلام التى تتناول رعاة البقر الذين يؤكدون تفوق الإنسان الأبيض الأمريكى.. إلى جانب الموسيقى والغناء والصحافة وكل هذا ساعد فى نقل هذه الصورة لشعوبنا.. وأصبحنا نتمثل أمريكا نموذجًا فى الملبس والمأكل والسلوك والبارات والسكر والجنس باعتبار أنها من المشهيات فى حياة الإنسان العصرى..

ولم يكن هذا النموذج موجهًا فحسب إلى الكبار.. وإنما وجه أيضًا إلى أطفالنا.. حيث زحفت مؤسسة (والت ديزنى) بكتبها وألعابها وأفلامها الكرتونية إلى ساحة الطفل العربى وقدمت التسهيلات الخارقة من أجل نشر أعمالها فى المجتمع العربى..

وتتبنى أمريكا .الإمبريالية - أفكار ماركس - الشيوعى - فى مسألة الدين.. ففى حين كان ماركس يرى أن الدين (أفيون الشعوب) ومن ثم دعا إلى إنشاء دول لا دينية.. تبنت أمريكا فكرة الدين - الإرهاب - ووجدتها ثغرة حقيقية للتسلل إلى الفكر العربى فى محاولة لرمى الإسلام والمسلمين بالتعصب والتطرف والإرهاب..

إن أمريكا تدرك تمامًا أن الإسلام أحد ركائز الهوية العربية.. فلماذا لا تحطم هذه الركيزة بالمنطق الأمريكى وتحت شعار التخلص من الإرهاب..

تطوير الخطاب الدينى

ليسمح لى القارئ أن أعرض هذا التقرير الذى انتهت إليه لجنة (تطوير الخطاب الدينى فى الدول العربية الإسلامية) وهى لجنة شكلت داخل الخارجية الأمريكية[1].

لقد انتهت هذه اللجنة منذ شهور من إعداد تقريرها النهائى، وذكرت فيه أن الإدارة الأمريكية ستبلغ الدول العربية بمضمون هذه التوصيات فى نشر الدعوة الدينية.. وكل ما يتعلق بأمور الدين الإسلامى..

وتشير المعلومات إلى أن تقرير هذه اللجنة يؤكد أهمية أن يتم التركيز على تقليل الاهتمام بالجانب الدينى فى الحياة الاجتماعية العامة.. وأن يبرز الدور الدينى معيارًا ثانويًا فى أساليب الحياة الاجتماعية للمواطنين حيث يرى الاهتمام بالجانب الدينى أحد الأسباب الرئيسية التى أدت إلى انتشار موجات الإرهاب..

ويرى التقرير أن إحدى الوسائل الأساسية للقضاء على الجانب الدينى يجب أن تتضمن إغراق الشعوب العربية الإسلامية بأنماط مختلفة من الحياة العصرية الغربية.. وأن تقتنع شعوب هذه المنطقة بالتسابق إلى حيازة أنواع مختلفة من أدوات التكنولوجيا الحديثة، وأن يتم نشر أنماط جديدة من التنمية فى هذه المجتمعات تعتمد أساسًا على الأسلوب الغربى..

ويقول تقرير اللجنة

إن هناك مشكلة أساسية تواجه المخطط فى مصر، وهى أنه مع زيادة معدلات الفقر وانتشار البطالة فإن هناك تفكيرًا تلقائيًا ينشأ لدى الأفراد هو اللجوء إلى الدين كوسيلة للخلاص من متاعب وأزمات الحياة الاجتماعية..

ولذا يجب التركيز على مصر فى برنامج المعونة الأمريكية الجديدة بعد أن

---

(١) نشرت أجزاء منه جريدة الأسبوع وجاء مفصلاً فى موقع (أبو بنان للإعلام الإسلامى العالمى).

جرى التوصل إلى نتيجة مفادها أن الدعاة المصريين ورجال الدين فى مصر هم الأكثر شهرة وتأثيرًا فى بقية الدول العربية والإسلامية.. فى حين احتل رجال الدين السعوديون المرتبة الثانية.

ويرى المشروع كذلك أن خطة تطوير الخطاب الدينى فى مصر سيجرى تنفيذها من خلال دورات تدريبية مكثفة.. وهذه الدورات ستنعقد بين القاهرة وواشنطن وأن مدة كل دورة تدريبية هى ستة أشهر. ويلتحق بها من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ من الدعاة ورجال الدين فى مصر. يمكثون ثلاثة أشهر فى واشنطن وبقية المدن الأمريكية وثلاثة أشهر أخرى فى القاهرة.. وسيتم اختيار عدد من الدعاة ورجال الدين الذين يرفضون الإرهاب ولديهم تفسير عقلانى للدين، وذلك ليكونوا محاضرين فى هذه الدورات التدريبية..

وسوف يحصل هؤلاء المحاضرون على دورات تدريبية خاصة مكثفة مدتها شهر واحد فى واشنطن يتعرفون فيها على كيفية إلقاء المحاضرات والتركيز على الجوانب المعينة من هذا المخطط..

وتشمل خطة تطوير الخطاب الدينى.. التركيز على مفردات هذا الخطاب بما يمس موضوعات بعينها خاصة ما ورد فى القرآن وفى أقوال الرسول ﷺ؛ لأن ذلك فى رؤيتهم يشكل السلوك العام الذى يلتزمه المسلمون.. بل إن هذه المفردات هى التى تؤدى إلى الإرهاب - على حد قولهم - وعلى سبيل المثال - يقول المشروع - إنه بعد أن تشاور أعضاء اللجنة مع عدد كبير من أبناء الجالية الإسلامية فى أمريكا.. رأوا أن لفظ (الجهاد) يجب أن يقتصر على جهاد النفس مع الالتزام بالعبادات فقط، وبالتالى يجب ألا يمتد معناه إلى القتال أو التحريض عليه أو أى تفسيرات أخرى..

ثم يتناول التقرير محورًا آخر شديد الغرابة.. فيقول:

أما لفظة (اليهود) فيجب أن يكون التفسير هو أنه لا يقصد اليهود أو الإسرائيليين الذين يعيشون فى عصرنا الحالى.. وإنما المقصود بهم قوم من البدو المتنقلين الذين عاشوا فى الماضى السحيق.. وأن أسباب العلاقات بين هؤلاء اليهود

وأصحاب الرسول ﷺ فى ذلك الماضى غير معروف على وجه الدقة حتى الآن.. وأنه لا يجوز أن يمتد العداء مع اليهود الذين يعيشون حاليًا بسبب عداء غير مفهوم فى الماضى القديم..

وهكذا تسعى اللجنة ـ الموقرة ـ إلى تدمير هذه الأفكار من خلال خطتها لتطوير الخطاب الدينى ـ الإسلامى ـ الذى يوصى برفع شعار (العالم الأفضل)، والذى من خلاله تتشكل لجنة دينية عليا من (المحمديين) ـ هكذا !ـ والمسيحيين واليهود تهدف إلى تبصير كل شعوب العالم بالتقاء وجهات النظر إلى التقارب بين الأديان الثلاثة.. وتقترح اللجنة الأمريكية أن يمثل (المحمديين) فى هذه اللجنة الأزهر الشريف.. بالتعاون مع نخبة من رجال الدين السعوديين.. ويمثل المسيحيين الفاتيكان.. ويمثل اليهود رجال الدين فى إسرائيل وأوروبا وأمريكا.. وتعقد هذه اللجنة أربعة اجتماعات كل عام فى الأماكن المقدسة: فى القدس ومكة والمدينة والفاتيكان..

وتشير الخطة إلى أن التوجيهات التى تصدر عن هذه اللجنة يجب أن تكون ملزمة لكل الدعاة فى شتى أنحاء الدول الإسلامية، وأن يتم إعداد كتيبات عن أعمال هذه اللجنة يتم توزيعها على الدعاة..

وتركز خطة تطوير الخطاب الدينى أيضًا على الموضوعات التى يتناولها الدعاة فى الخطب العامة ـ وتقصد خطبة الجمعة ـ حيث تشير اللجنة إلى أنه لا يجوز بأى حال تسييس هذه الخطب (العامة)، خاصة بعد أن ثبت أن ذلك قد أدى إلى زيادة عدد المتطرفين والإرهابيين فى دول المنطقة، كما أن تسييس هذه الخطب يتم دائمًا بهدف الهجوم على السياسات الغربية والإسرائيلية تحديدًا..

وتطالب الخطة الأمريكية بالتزام الدعاة بالتركيز فى خطبهم على شعائر الدين بعيدًا عن التعصب وإثارة الكراهية ضد الآخرين.. بل وتطالب الخطة بتوقيع العقوبات الفورية على رجل الدين الذى يقوم بذلك..

وتشدد الخطة على ضرورة وضع رجال الدين المسئولين عن الدعوة تحت رقابة

أجهزة الدولة؛ وذلك لضمان نشر التوجه الدينى الذى يقضى على نزعات التطرف والعداء..

وترى الخطة أهمية أن تكون هناك خطة إعلامية متدرجة تبدأ بإزالة الحقد والبغضاء والاختلاف بين (المحمديين) وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى.. وفى مرحلة تالية فإن هذه الخطة الإعلامية يجب أن تعمل على طرح أحاديث مشتركة ولقاءات دورية يشارك فيها رجال الدين الإسلامى والمسيحى معًا حول كافة جوانب الاتفاق الممكنة.. وفى المراحل الأخيرة سينضم إلى هؤلاء رجال الدين اليهودى، على أن يجرى تطبيق هذه الخطة الإعلامية أيضًا فى نطاق التجمعات الأخرى داخل المجتمع.. والأمر نفسه بالنسبة للكتب والمقررات الدينية وبعض الصحف التى يجب أن تركز على هذا الاتجاه وذلك من أجل عالم أفضل!!

وترى الخطة الأمريكية ضرورة أن يأخذ (المحمديون) بأحكام وشرائع المسيحيين واليهود فى بعض المسائل الفقهية أو العبادات؛ لأن ذلك سيقرب بين الأطراف وبعضها.. وتشير الخطة إلى أن هذا لن يخل بخصوصية الدين (المحمدى)؛ لأنه - على حد علمهم - يعترف بأنبياء الديانات الأخرى خاصة أن التوحد الدينى سيظل هدفًا مثاليًا وسنسعى إلى تحقيقه بكل الوسائل.

وعن دور المسجد فقد حاز على اهتمام كبير فى إطار خطة تطوير الخطاب الدينى، حيث تهدف الخطة إلى أهمية أن يتحول المسجد إلى مؤسسة اجتماعية تربوية بدلاً من كونه أداة للتحريض وبث الكراهية فى مواجهة الآخرين.

وترى الخطة ضرورة ألا يقتصر دور المسجد على الجوانب الدينية فقط، بل يجب أن تلحق به حدائق للأطفال والسيدات، وأن يمارس الشباب بجواره مختلف الألعاب الرياضية، وأن تلحق به برامج كاملة لمحو الأمية وزيادة نسبة التعليم!! أما إمام المسجد فترى الخطة ألا يكون هو القائد المتحكم فى كل هذه المؤسسة وإنما يجب أن تديرها إحدى الشخصيات الناجحة؛ وذلك لضمان ألا تتحول هذه المؤسسة مستقبلاً إلى مؤسسة دينية.

وتقترح الخطة أن يلحق بهذه المؤسسة الاجتماعية أيضًا إدارة كاملة لتلقى التبرعات الخيرية، وأن ممثلاً من الدولة سيكون هو المسئول عن هذه الإدارة، وأنه هو الذى سيقوم بنقل هذه الأموال إلى الجهات العليا فى الدولة التى سيتم الاتفاق معها على أوجه الإنفاق. وسيضمن تحويل المسجد إلى مؤسسة اجتماعية إنشاء إدارة خاصة فى كل مؤسسة لتنشيط دور المرأة اجتماعيًّا؛ لأنه ووفقًا لما توصلت إليه اللجنة الأمريكية فإن من المشاكل الأساسية والاجتماعية عدم وجود مؤسسات تدعم عمل وأنشطة المرأة، فى حين أن ذلك يتوافر للرجال بشكل أساسى.

وتقول الخطة: إن المساجد تلعب دورًا كبيرًا فى الانتخابات بجميع أنواعها، وأن المرأة يجب أن تمارس دورها فى الدعاية الانتخابية من خلال المسجد بعد أن جرى الحظر عليها كثيرًا فى أوقات سابقة، وأن تحويل المسجد من مؤسسة دينية إلى مؤسسة اجتماعية سوف يساعد فى تحقيق المد الديموقراطى وممارسة المرأة لدورها. وترى الخطة أن أحد المتطلبات الجديدة لإنشاء المسجد هو أن يلحق به ما يضمن للمرأة أن تمارس فيه نشاطها السياسى والاجتماعى، وبالتالى الاختلاط مع الرجال فى داخل هذه المؤسسة الاجتماعية، فذلك فقط هو الذى يضمن أن تتحول هذه المؤسسة إلى إحدى المؤسسات الداعمة للمد الديموقراطى، وهذا هو أحد الأهداف الأساسية التى ستسعى الخطة إلى تحقيقها فى السنوات المقبلة بتحويل دور المسجد من كونه أداة ساعدت على جمع الإرهابيين وطرح الأفكار الإرهابية إلى مؤسسة ديموقراطية تتم فيها ممارسة كافة الأنشطة.

وتقول الخطة: إنه بعد الاطلاع والزيارات واللقاءات المختلفة مع (المحمديين) سواء فى الأراضى الأمريكية أو خارجها، رأينا ظاهرة مهمة يجب أن يتخلص منها (المحمديون) وهى تتعلق بأنه فى خطبة الجمعة دائمًا يكون المحاضر هو الذى يتكلم وحده، وأن الآخرين لا يجوز لهم الحديث نهائيًّا أو التعليق على كلامه أو توجيه أية انتقادات إليه، مما يكرس من مفهوم الاقتناع الذى يقوم به المحاضر تجاه كل الأفراد الذين يسمعونه، وهذا الأسلوب لا بد من تغييره بأن يتم تحويل الخطب العامة إلى ساحات للنقاش والحوار بين مختلف الأطراف.

وتطالب الخطة بضرورة التشاور مع القيادات الدينية فى مصر وبعض البلدان العربية لإقناعهم بالمزايا الديموقراطية الجديدة إذا ما تم تحويل خطبة الجمعة إلى منتديات للحوار والنقاش تشارك فيها كل الأطراف، وتقترح الخطة ألا يكون موضوع الخطبة دينيًّا بالضرورة حيث يتوجب أن تكون هذه الخطب العامة ذات أهداف اجتماعية، وأن يتم حل بعض المشكلات الاجتماعية من خلالها وأن يتم إلغاء الطابع الحماسى والإنشائى فى هذه الخطب العامة.

وترى الخطة أن تطوير الخطاب الدينى يستوجب أن يكون للفتيات والمرأة دور مهم فى ممارسة الخطابة الدينية، وألا تكون هذه الخطابة مقتصرة على الرجال، بل يجب أن يكون للمرأة دورها فى خطبة الجمعة، بما يكرس مفهوم إزالة التفرقة غير المبررة بين الرجال والنساء، حيث لا توجد نصوص دينية - كما ترى الخطة - تحرم على المرأة أن تتولى خطبة الجمعة وقيادة الرجال فى الصلاة!!

أما بالنسبة لدور المدارس فى تطوير الخطاب الدينى فإن الخطة تقترح أن يتم إلغاء مقررات التربية الدينية، وأن تخصص المدارس يومًا كاملاً للقيم الأخلاقية والمبادئ بديلاً عنه، حيث يقوم التلاميذ فى هذا اليوم ببعض الأعمال الصالحة للمجتمع، على أن يجرى التركيز فى ندوات هذا اليوم على إدانة عمليات القتل والإرهاب، والتأكيد على قيم التسامح والسلام مع الآخرين، إضافة إلى المبادئ الحديثة للعلم والتكنولوجيا. ومن المهم وفقًا للخطة أن يحوى هذا اليوم المدرسى صورة التآلف بين التلاميذ من أصحاب الديانات المختلفة؛ وذلك لإزالة أية حساسية فى العلاقات بين أبناء هذه الأطراف خاصة فى المستقبل، مما يستوجب التركيز على صناعة المستقبل الدينى لهؤلاء الأطفال من خلال ربطهم بقيم حياتية وأهداف يعيشون بها.

أما فيما يتعلق بالكتاب المقدس (القرآن) أو أقوال الرسول محمد ﷺ فترى الخطة أن التلاميذ يجب أن يكونوا أحرارًا فى أن يتعلموها خارج المدرسة؛ لأن المسجد سيكون له دوره الاجتماعى، ومن أحد هذه الأدوار هو تلقين هؤلاء الأطفال والتلاميذ ما يتعلق بأمور دينهم الصحيح، وأن يستمعوا إلى كتابهم المقدس.

وتقول الخطة فى هذا الصدد: إن التنشئة الاجتماعية للطلاب والتلاميذ فى البلدان العربية والإسلامية لا بد أن تتميز بالقدرة على اكتساب مهارات التسامح مع الآخرين والقضاء نهائيًّا على التعصب الدينى تجاههم، وأن الأديان التى يؤمنون بها هى نتيجة طبيعية للتنشئة والأفكار السابقة التى اكتسبوها، وأن هذه الفكرة تجعل الجميع يشعرون بأنهم ينتمون لبنى الإنسان، وأن كلاً منا له الحرية الكاملة فى معتقداته وأفكاره دون أن يمثل ذلك اعتداء على حريات الآخرين أو التقليل من شأنهم.

وتقول الخطة: إن إحدى المشكلات التى نجمت عن الإرهاب فى السنوات الماضية التى أدت إلى تصعيد موجات التطرف هى نمط التنشئة التمييزية فى المدارس والمجتمعات العربية للطلاب والتلاميذ، وأن هذا النمط فى التنشئة يقوم أساسًا على فكرة أن المسلمين لهم الأفضلية الأولى فى العالم الآخر، وأن أتباع محمد ﷺ هؤلاء هم المبشرون بالنعيم والراحة، فى حين أن كل أتباع الديانات الأخرى هم على خطأ فيكون لهم عذاب كبير فى الآخرة، كما نشأت أفكار تمييز ضد أصحاب الديانات الأخرى مما أدى لانتشار العنف والأفكار الخاطئة.

وترى الخطة أنه يجب التركيز أيضًا على نوعية الدعاة الجدد لأن الأفكار الأمريكية ترى أهمية مراجعة كل الأفكار التى يتلقاها الطلاب فى الكليات والجامعات والمعاهد الدينية؛ لأن هؤلاء سيكونون هم المسئولين بالدرجة الأولى عن مجالات الدعوة للدين.. وفى هذا الشأن تقترح الخطة أن تكون هناك لجنة مشتركة بين مصر والولايات المتحدة لدراسة أنسب الأوضاع الممكنة فى المقررات الدراسية للكليات الدينية أو الكليات المعنية بتخريج الدعاة، وقد توصلت الخطة مبكرًا إلى هذا الاقتراح فادّعت أن هذه اللجنة لا تعنى التدخل الأمريكى المباشر فى الإشراف على الأزهر وهو ما كان محل مطالبات سابقة من حوالى ٥٠ عضوًا فى الكونجرس، ولكن الاقتراح المقدم بأن تتولى هذه اللجنة المشتركة بحث سبل تطوير مناهج الأزهر ودوره الداخلى والخارجى، وأن واشنطن ستقدم فى مقابل ذلك مساعدات مالية سنوية لتطوير أبنية الأزهر وأنشطته الاجتماعية ودعم دوره الخارجى!! ووفقًا

للخطة الأمريكية فإن الدور الخارجى للأزهر سيجرى بالاتفاق بين الطرفين المصرى والأمريكى، حيث تطالب الخطة بأن تكون هناك شعارات مشتركة يتم رفعها فى الأزهر والولايات المتحدة، وأن هذه الشعارات ستكون بمثابة برامج عمل يتم تنفيذها سنويًّا وأن تنفق الولايات المتحدة كل ما هو ضرورى من أموال لإنجاح هذه البرامج.

واقترحت الخطة أن تكون الأعوام القادمة مخصصة لعالم خالٍ من العنف والإرهاب، وأن تقوم مؤسسة الأزهر بعقد الندوات والمؤتمرات فى مصر أو غالبية دول العالم الإسلامى، وأن تكون هناك مطبوعات صادرة من الأزهر يقوم الجانب الأمريكى بتسويقها فى الدول العربية والإسلامية الأخرى، بالإضافة إلى توفير الدعم المادى لقيام الأزهر بإعداد موسوعة دينية كبرى هدفها الأساسى الحض على التسامح والتعاون مع الآخرين، على أن تتضمن هذه الموسوعة الأفكار الثابتة فى الدين الإسلامى بالإضافة إلى الأفكار المشتركة مع أصحاب الديانات الأخرى.

وتقترح الخطة الأمريكية فى هذا الصدد أن يكون هناك فريق عمل مشترك بين الأزهر والفاتيكان ورجال الدين اليهودى لتطوير هذه الموسوعة سنويًّا بما يحقق أكبر قدر ممكن من الاتفاق بين الأطراف الثلاثة ومواكبة التطورات الجارية.

وتوصى الخطة فى نهايتها بضرورة وضع إطارها العام موضع التنفيذ فورًا بما يمكنها من تحقيق أهدافها، مع التوصية بتشكيل اللجنة المصرية الأمريكية تحت مسمى اللجنة الدينية لمكافحة الإرهاب، بما يمكنها من الإشراف الكامل ليس على مؤسسة الأزهر فقط، وإنما على كافة المؤسسات الدينية الأخرى فى مصر والشرق الأوسط.

وهنا ينتهى تقرير هذه اللجنة ويبقى سؤال مهم:

- هل ستنجح أمريكا حقًّا فى (أمركة) الدين والعقيدة وفقًا لهذه الخطة؟
- وهل ستنجح فى إجبار الحكومات فى الدول العربية والإسلامية على الالتزام بهذه الأچندة.

إن ما تريده أمريكا من مخططها هو تغيير وجه خريطة العالم الإسلامى على طريقتها الخاصة.. فى مجال العقيدة.. والمناهج الدراسية.. والدعاة الدينيين والمسجد الذى تريد أن تحوله إلى مساحة يختلط فيها النساء بالرجال وتعطى المرأة حرية أن تخطب الجمعة فى المسلمين وأن تؤمهم - تحت شعار الديموقراطية - وكذلك تقليص دور الأزهر الشريف والتأثير عليه بالمساعدات المالية الكبيرة.

ويبدو أن الغرب قد استقر منذ زمن طويل على رؤية العرب والإسلام.. ومن الصعب. وفى غياب إعلام إسلامى مقنع. أن نغير هذه النظرة.

فى كتابه (الإسلام وأوروبا . تعايش أم مجابهة)[1] يعرض كاتبه (إنجمار كارلسون) لعدد من القضايا الشائكة التى تمس عداء الشرق والغرب.. حيث بدأ كتابه بمقال نشر فى مجلة (سلبتز) بقلم (إيريك هوستاديوس).. يقول فيه:

لو أن مائة ألف عربى قتلوا لما انتابنى أى شعور غير عادى.. أما بالنسبة لقوات الحلفاء الغربيين فالأمر مختلف حيث أشعر بالتعاطف معهم ومع أسرهم.. إن العرب يبعثون الخوف فى نفسى على أية حال..

ثم يذكر الكاتب كيف أطلق رسامو الكاريكاتير العنان لمخيلاتهم لتصوير العرب فى الصحف بأشكال وهيئات وحالات مقززة ومنفرة دون استياء.. ويضيف:

إن الباحثين فى الولايات المتحدة قد وصفوا فى عام ١٩٨٠م مرادفات لكلمة (عربي).. فى قاموس (روجيت) مثل: نذل.. جلف.. مخادع.. ساذج.. أخرق..

ذلك طرف من رؤية الغرب إلينا.. ومن ثم لم يكن غريبًا أن تلجأ الخارجية الأمريكية إلى المشروع الذى يصف المسلمين (بالمحمديين) تمامًا كما نصف أتباع المسيح بالمسيحيين.. غافلاً تمامًا حكمة إطلاق مسلمين على كل من يدخل الإسلام باعتباره يسلم وجهه لله تعالى.

نفهم من هذا أن الغرب حينما ينظر هكذا للعرب والمسلمين فهو يعامل القضية على أنها أمر يسهل تغييره وتبديله ولا يتطلب مشقة أو صعوبة.. فهو

---

(١) ترجمة سمير بوتانى - نشر مكتبة الشروق الدولية - ٢٠٠٣م.

يتعامل مع قوم جهلاء مخادعين.. أنذال.. أجلاف.. عديمى التحضر.. ولا بد أنهم متعطشون لأضواء تبهر أعينهم وتخرجهم من هذا الجب المظلم .على حد زعم القائمين على المشروع..

هكذا تدخل أمريكا - دون خوف - عش الدبابير .كما يقولون.. وتمس بكل صفاقة قداسة العقيدة للمسلم فى كل مكان عربى.

وهذا جانب أو عنصر رئيسى من ركائز هوية العرب الثقافية.. إنها تريد أن تسطح العقيدة.. وتجعلها محكومة بتوجيهات البشر وليس بأوامر الإله الأعظم.. تجىء أمريكا لتمس الثوابت العظيمة فى هويتنا العربية.. وهى تدرك تمامًا أن التأثير والإغراء باسم التطور يمكن أن يأتيا ويحققا الهدف الذى تريده فيفقد الإنسان العربى دينه ويفقد كرامته ويصبح طيعًا فى يدها تحركه فوق رقعة الشطرنج كما تريد..

إنها تريد أن تمحو التعليم القومى النابع من عناصر الهوية الثقافية العربية.. وتفرض منظومات ذات مضمون (إنسانى) من أجل تهيئة جيل جديد يتقبل الهيمنة الأمريكية ونموذجها العالمى.

ديموقراطية أمريكا

لقد أعطى الثلاثاء الأسود أمريكا ذريعة قوية وشرعية لمزيد من التسلط والتبجح والطغيان . تحت شعار القضاء على الإرهاب .وكان هذا الإرهاب المزعوم لا وجود له فى أمريكا نفسها.. ونسيت أنها أول من أرضعت الشر الذى تحاربه اليوم.

ويصدقها العالم.. بل تعجز كل مؤسساته الشرعية ومجالسه الأمنية عن الوقوف فى وجهها الصفيق.. وحينما تجد نفسها فى مأزق سرعان ما تلوح بالفيتو أى ما يمكن أن نسميه بالإجابة المسكتة التى توقف نمو أى قرار ضد مصالحها.

هكذا تحاول أمريكا أن تفلح فى تسيير أقدار الشعوب وتسيطر على عقول العالم، وتمسك للبشرية سوطًا ناريًا تهددها به.. ولا تجد من يملك القدرة أو الشجاعة على مواجهتها..

الساحة إذن خالية تمامًا ولا أحد يمكنه أن يقاوم!

ثم ها هى منذ فترة قصيرة تدفع بفتاها المدلل (كولن باول) لكى يمارس لعبة جديدة.. وحددت له أيضًا منطقة الشرق الأوسط . أى الأمة العربية . ليجرب فيها هذه اللعبة..

ولأن أمريكا اعتادت منذ زمن بعيد على ممارسة لعبة الأمم وكأنها تمسك بخيوط الدمى فوق المسرح السياسى والثقافى والاجتماعى.. فقد سمحت لطفلها المدلل أن يحلم ويتخيل ويتصور ويعبث بخريطة الوطن العربى باعتباره . فى ظنه . محكومًا بالديكتاتورية ويعانى فسادًا سياسيًّا واجتماعيًّا.. وينقصه الوعى الثقافى والتعليمى.. كما أن المرأة العربية متخلفة عن مواكبة إيقاع العصر.

هكذا أعطت أمريكا طفلها المدلل عناصر الرؤية الجديدة.. كما اقترحت عليه عنوان (الديموقراطية) إطارًا مرنًا يضم هذه العناصر. ثم ها هى تمهد له الساحة لكى يرتع فيها كما يحلو له.. وكما يهيئ له خياله الشارد ونزقه الداخلى وحقده الأسود على الشعب العربى وحضارته..

ولأننا أمة نعشق الجدل والمداخلات والصراع الفكرى.. فقد أخذت الأقلام هنا وهناك تتجادل حول مفهوم الديموقراطية التى تريدها أمريكا.. وهل هى ديموقراطيتها أم ديموقراطية عربية.

وقد طرحت أمريكا الفكرة وتركت العالم العربى يموج فى محاورات ومجادلات عقيمة، وفى أثناء ذلك لجأت إلى إشعال الدسائس بين الدول العربية وإثارة الفتن ثم حصدت بعد ذلك ثمار جريمتها.. التى تمثلت فى تلك البثور والثغرات التى تحدث فى جسد الأمة العربية فيدخل منها السوس الذى يقضى على صاحبه.. وحينئذ تفلت أمريكا من الساحة؛ لأنها حققت أهدافها بديموقراطيتها المزعومة.

إن أمريكا تزعم أننا جاهلون أميون بمفهوم الديموقراطية والحقوق السياسية للإنسان وحقوق المرأة.. فلماذا لا تعلمنا هذا كله تحت مظلة التحضر والعولمة

والتطور. ولكى تستحى أعيننا أعلنت أنها سوف تطعم أفواهنا بالمعونات المالية سنويًا نظير الاستجابة بدون نقاش أو جدل أو تمرد..

فعلا: إن لم تستح فافعل ما شئت.

لقد أنزلت أمريكا مرة أخرى برقع الحياء بلا رجعة.. والعالم لا يحتج ولا يتصدى حتى كان الوجه القبيح الذى نراه اليوم..

إنها تتهم العالم كله نهارًا جهارًا بالديكتاتورية.. وتلوح هى بالديموقراطية.. وهى تمارس أعتى أشكال الإرهاب وتحاربه فى الوقت نفسه.. وتأمر العراق وسوريا وإيران وغيرهم بتدمير أسلحة الدمار الشامل.. وتزود إسرائيل بها وتشجعها على إنتاجها فى ذات الوقت..

وكل هذا يعنى لدى أمريكا: الديموقراطية..

ولكى تكون اللعبة محكمة مقنعة.. أعلن الطفل المدلل خطة لعبته فى عناصر عدة ضمخها بالعطر الأمريكى وألبسها زينة أمريكية باهرة.

فهو يرى أن بعض دول المنطقة فى حاجة إلى (إصلاحات ديموقراطية) نتيجة غياب الوعى السياسى والتعليمى.. وهذه الدول سوف تساعدها أمريكا وترضعها لبنها المغذى المفيد وتهدهدها بالقيم الديموقراطية التى حرمت منها طويلاً..

ويرى أن بعض الدول الأخرى لا بد أن تتحول إلى الديموقراطية بفرض الإصلاحات عليها بالقوة العسكرية.. وتغيير نظام الحكم فيها بالعنف والإجبار.

أما الفريق الثالث من دول المنطقة فهو يحتاج إلى خبراء أمريكيين يدعمون عملية التغيير..

هكذا قسم الطفل المدلل خريطة الدول العربية إلى معسكرات ثلاثة.. وعلى الدول العربية أن تضع نفسها - إذا استطاعت - فى المعسكر الذى ينطبق أوصافه عليها.

وأحسب أن أمريكا قد سألت طفلها المدلل: كيف تضمن تحقيق لعبتك هذه بأفضل النتائج؟

وأظنه كان جاهزًا بالرد المقنع:

- إن لنا قواعد عسكرية متعددة فوق الأرض العربية.. وعلينا أن نزيد منها ونتوسع فيها بحيث تشكل في النهاية سياجًا قويًا نهدد به من يخرج على إرادتنا أو يتمرد على ديموقراطيتنا.!

وأظن أمريكا قد رحبت بهذا الرد الجاهز من طفلها المدلل خاصة بعد أن صارت العراق منطقة مباحة للوجود العسكرى الأمريكى..

تلك هى خطة ديموقراطية أمريكا فى المنطقة بعيدًا عن الجدل العقيم الدائر فى كل مكان..

وأحسب أن شعارات أمريكا المبهرة قد أفلحت .وتفلح دائمًا فى إقناع ساستنا بما تريد.. وأن لدى أمريكا خططًا بديلة جاهزة للتسلل إلى وجدان الشعوب العربية دون أن تشعر بأى فشل أو أى إحباط.

إن أمريكا تتذرع دائما بأنها صانعة الديموقراطية فى العالم.. فهل هى كذلك حقًا..

وهناك من المواقف التاريخية ما يفضح عدم احترامها لحقوق الإنسان سياسيًا وثقافيًا واجتماعيًا..

أليست هى التى أعلنت العداء للدول التى تعارض سياستها ابتداء بالاتحاد السوفييتى فى إطار (الحرب الباردة).. ثم عادت تلك الدول التى رفضت سياستها للدخول فى العولمة..

ثم هى تنكر حرية العقيدة لدى المسلمين وتحاول تفتيت هذه الحرية وتسطيحها.

وها هى تعبث بحضارة العراق وتقتل أطفاله ورجاله ونساءه كما تشتهى.. وتنتهك حرماته ومقدساته وآثاره العريقة..

وعلى الجانب الآخر تشجع إسرائيل على عدوانها اليومى فى فلسطين.. وتقلب الحقائق وتعتبر الدفاع عن النفس إرهابًا.. والعدوان حقًا مشروعًا..

تلك هى ديموقراطية أمريكا التى تزعم أنها صانعتها ومانحتها العالم كله..

إن نظرة موضوعية لهذه السياسة الإرهابية كفيلة بنشر المقاومة واستمرارها من أجل الكرامة العربية..

ويأتى هنا دور المثقف ليكف عن الجدل والنقاش العقيم.. ويبرز للقارئ العربى ما وراء هذه الديموقراطية المزعومة من سيطرة وتسلط وبطش بمقدرات ومكتسبات الوطن العربى.. والإطاحة بهويته التى ظل قرونًا كثيرة يؤكد ريادتها وطهارتها..

المخطط الإعلامى الأمريكى

ترى ماذا تهدف أمريكا من خطابها الإعلامى الموجه إلى المنطقة العربية؟

لقد حرصت أمريكا فى السنوات الأخيرة - وفى عصر الفضائيات - على ضرورة التأثير فى العقل العربى - خاصة شباب الغد - بأفكارها ونموذجها الخاص..

لقد جندت أمريكا كل إمكاناتها التكنولوجية والإعلامية المتطورة لكى تظل فى أعين المتلقى الدولة العظمى المهيمنة فى العالم..

فنجدها تراقب بأقمارها الصناعية تحركات الدول وجيوشها.. مما جعل العالم يعيش أسيرًا تحت مجهر أمريكا..

وها هى تستغل هذا الطغيان الفضائى لتبث من خلاله ما تريد فى مجالات الحياة المختلفة..

وحسبنا أن نغمض أعيننا قليلاً ونعود إلى الوراء بضع سنوات لنرى ما عليه إعلامنا من القيم والوفاء لهويتنا العربية.. ثم نفتحها مرة أخرى اليوم.. لنجد تأثير الإعلام الأمريكى عليه..

- العبث بالقيم النابعة من هويتنا بحجة العولمة والتطور والتحديث.

- العرى والتفاهة فى الفن والطرب والموسيقى.
- الأمية والجهل وعدم القراءة ومحدودية المعرفة.
- انهيار المنظومة التعليمية فى المدارس اعتمادًا على ما يبثه التليفزيون من برامج تعليمية وعلى الدروس الخاصة.
- الزج بالبرامج الثقافية الجادة إلى بعد منتصف الليل وعدم بثها فى ساعات الذروة.. لأن هذه الساعات يبث فيها البرامج التافهة التى تخاطب الغرائز والمراهقين.. وتستضيف أنصاف المواهب من الفنانين.. ولاعبى الكرة..

ونحسب أن فضائيات أمريكا قد خصصت برامج بعينها لتبث إلى منطقتنا العربية بقصد تفكيك المنظومة الإعلامية العربية التى تكاد تكون صورة مشوهة من هذه البرامج..

تلك هى لعبة الإعلام فى المخطط الأمريكى وتشكل الضلع الثالث من مثلث السيطرة على عقولنا بعد أن تعرفنا على الضلعين الآخرين: الخطاب الدينى.. والديموقراطية.

ونرى أن تفصيلات كثيرة يمكن أن نلمسها خلال هذا المخطط لكننا قصدنا أن نلمس الخيوط الرئيسية لهذه المؤامرة على عقولنا.. حتى نتيقظ لها ونواجهها بالأسلوب الأمثل.

ونظن أن مواجهة ذلك من الأمور المتاحة بين أيدى العرب.. فبدلاً من إنشاء مزيد من الفضائيات وإطلاق مزيد من الأقمار التى تبث برامج مكررة ممجوجة.. كان من الممكن أن يجتمع العرب الأثرياء حول فضائية موحدة أو أكثر مهمتها الأساسية مواجهة هذا الإعلام الأمريكى الخطير.

لكن الذى يحدث هو العكس تمامًا.. فقد أقبل الأثرياء العرب على محاكات الإعلام الغربى وأنشئوا فضائيات للغناء والموسيقى والرقص تبث هذا كله خلال النهار والليل بلا توقف غافلين - أو واعين - أن هذا كله يزيد من غياب العقل العربى

عن الساحة.. والزج به إلى متاهات تخدر وتغيب مشاعره وأحاسيسه.. وتوقظ غرائزه على الجنس والتفاهة.. وتبعده تمامًا عن الغذاء الروحى والثقافى..

نحن لسنا ضد الترفيه الإعلامى على الإطلاق.. وإنما ينبغى أن يحدث الإعلام التوازن المطلوب بين الترفيه والتثقيف.. بين إشباع العواطف وإشباع العقول.. بين التسلية والوعى..

دعونا نكن أكثر صراحة مع أنفسنا.. ونعترف أن دور الفضائيات وسيطرتها على عقل ووجدان المشاهدين يكاد يفوق الكتاب والصحيفة.. ومع ذلك فهى تتعامل مع الثقافة وكأنها شأن يدعو إلى الخجل.. وأن قيمتها أقل كثيرًا من برامج المنوعات واللقاءات مع أنصاف المواهب والغناء والرقص.. على حين يجتهد الإعلام الغربى فى توجيه سمومه إلى مجتمعنا.. فيقبل عليها الشباب.. وتسرع الفضائيات العربية إلى محاكاته..

والآن.. أما آن للقائمين على الإعلام العربى أن يفيقوا قليلاً على هذه المأساة..؟ فإذا واصلنا صراحتنا أكثر ووضعنا الإعلام العربى فى كفة والإعلام الصهيونى فى كفة أخرى أمام ما يحدث فى فلسطين مثلاً.. لوجدنا فرقًا شاسعًا..

إن إسرائيل تفلح دائمًا فى إقناع العالم بقلب الحقائق وتصوير المقاومة على أنها إرهاب.. أما قنواتنا الفضائية - والتى لا تصل إلا إلينا فقط - لا تملك حجة قوية على إقناع العالم بالحق العربى..

ولنتذكر معًا ذلك المعرض الفنى الثقافى الذى أقامته إسرائيل فى أحضان مدينة والت ديزنى فى أمريكا.. لتقنع العالم بأنها هى الطرف صاحب الحق فى أرض فلسطين وحينما انتبه العرب إلى خطورة ذلك وحاولوا إقامة جناح يواجه جناح إسرائيل فشلوا فى ذلك لأن ما لديهم لا يصل إلى مستوى الإقناع..

إن هذا الفشل الإعلامى إذا استمر فى عناده ورعونته.. إنما يفتح الباب على مصراعيه للغزو الإعلامى والثقافى الأمريكى الصهيونى.. فما رأى أصحاب الفضائيات العربية.. وما مدى حبهم لأمتهم.. وانتمائهم لهذه الحضارة العربية العريقة؟

مسمار فى نعل حصان

فى حوار مفتوح خلال مسرحية شكسبير التاريخية (ريتشارد الثالث) يكشف ريتشارد عن وجهه القبيح كمخلوق يشمئز منه الناس.. قاسيًا جامدًا عنيدًا.. معدوم العواطف.. منحرف الذهن.. وها هو يعترف بهذا كله فى قوله: (إننى مصمم على إثبات سفالتى وأكره متع هذه الأيام الكسلى) !

لم يقف أحد أمام ريتشارد ليصل إلى أطماعه وطموحاته.. زج بابنى أخيه الصغيرين فى سجن برج لندن.. واقترف جريمة قتلهما للتخلص منهما؛ لأنهما كانا الوريثين الشرعيين للعرش.. ثم استولى هو على التاج.. وأعدم معارضيه.. وخطب ابنة أخيه إدوارد الرابع وريثة العرش وهى محرمة عليه.. لكن أعداءه لم يستسلموا.. بل تحالفوا مع أكبر معارضيه (هنرى ريشموند) وكونوا جيشًا كبيرًا للقائه.

وقبل أن يبدأ القتال بين الطرفين.. أرسل ريتشارد سائس خيله بحصانه إلى الحداد ليرى إذا كانت نعاله قوية على الوجه الصحيح..

تبرم الحداد قائلاً: لقد جئتنى فى وقت غير مناسب.. فأنا مشغول بخيول كثيرة هذين اليومين.. كما أشكو نقصًا فى النعال الجاهزة.. ربما عليك أن تنتظر حتى أذهب لشراء كمية جديدة من النعال..

صاح السائس فى وجه الحداد: لن أنتظر.. إنه حصان الملك..

واضطر الحداد إلى جمع النعال القديمة وصنع منها نعالاً مناسبة للحصان وأخذ يثبتها فى أقدامه ويدقها بالمسامير.. لكن الحداد لم يجد المسامير الكافية لدق النعال كلها، وبقى حافر قدمه اليسرى الخلفية ينتقصه مسمار..

سأل السائس الحداد: ألا تستطيع صنع مسمار آخر لتدقه ؟

قال الحداد: أفعل إذا انتظرت قليلاً.

صاح السائس مرة أخرى فى وجه الحداد: نحن لا نعرف الانتظار يا رجل.

قال الحداد: على كل لقد ثبت النعال جيدًا.. ما عدا القدم اليسرى التى ينقصها مسمار واحد.. ولا أظنه سوف يفلت منها إلا إذا اصطدم بصخرة مثلاً !

استراح السائس لكلام الحداد.. وأسرع بالحصان إلى الملك ريتشارد الذى اعتلاه فى زهو قاصدًا ميدان القتال.. لكن المعركة لم تكن فى صالحه.. ومع ذلك أصر بعناد على حث رجاله ودفعهم للقتال دون أن يهتم بالدماء التى كانت تسفك أمام عينيه..

وفى أثناء ذلك اصطدم حصانه بصخرة.. فأدت الصدمة إلى ضياع نعل الحافر الأيسر. فكبا الحصان وكبا معه الملك.. وحاول أن يقوم ملوحًا بسيفه طالبًا النجدة: حصان.. حصان.. مملكتى بحصان !

لكن أحدًا لم يسعفه.. فقد انهك جيشه فى معركة غير متكافئة.. وسقط عليه أعداؤه وأثخنوا جسمه بعشرات الطعنات !

ومع ذلك يقول شكسبير:

من أجل حصان فقد الفارس.. ومن أجل الفارس خسرت معركة.. ومن أجل النصر ضاعت مملكة.. وكل هذا من أجل مسمار نعل حصان !

ترى هل يعيد التاريخ نفسه حينما سقطت بغداد.. بعد سنوات دامية من القهر والعناد ومحاربة الجيران.. وجنون العظمة.. وها هو صدام يسقط مثخنًا بجراحه نتيجة صلفه ونزقه ؟

الاختلاف الوحيد أن (هنرى ريشموند) كان وطنيًا معارضًا.. خلص وطنه من ظلم ريتشارد وتوج بعد ذلك ملكًا باسم (هنرى السابع) على حين لم ينهض أحد فى بغداد ولم يجرؤ وطنى شريف أن يقف فى وجه صدام ويخالفه وينتصر عليه.. وقامت بهذه المهمة - للأسف - القوة الغاشمة التى لم تعادِ فقط صدامًا وبغداد.. وإنما عادت الأمة العربية بأسرها..

تربعت أمريكا على نفط العراق.. وداست حرماته.. ومزقت تاريخه.. وأطاحت بآثاره وحضارته.. وفعلت به ما لم يفعله المغول..

ومهما كان عناد صدام ونزقه وجنونه.. فإن أمريكا كانت تستطيع أن تغلق هذا الملف - إذا أرادت - دون سفك دماء الآلاف الأبرياء من العراقيين.. ودون إشعال

الفتنة بين طوائفه.. لو أنها تسللت بمخابراتها بليل.. وأمسكت بصدام دون إراقة دماء..

لكن هذا الأسلوب ليس من طبائع الدولة العظمى.. فهى مغرمة باستعراض قواتها العسكرية.. ومشغوفة بالتباهى بأنها أكبر قوة فى العالم.. تبطش بالأبرياء ولا أحد يمكنه أن يلومها على شىء.. وكلمتها هى العليا.. وكلمة أى قوة أخرى أو أى مجلس أو منظمة لا طائل منها إذا لم تكن فى جانب أمريكا العظمى. هكذا . !

فعلت ذلك . وحدها . حينما رفض مجلس الأمن والجمعية العمومية ضرب العراق.. وفعلت ذلك . وحدها . حينما اعترفت بأنها قوة احتلال لهذا البلد الكريم.. وفعلت هذا . وحدها . حينما رفضت دول أخرى أن تعاونها.. فأكلت الكعكة العراقية وحدها ومنحت بريطانيا ما تيسر منها..

ماذا تبقى اليوم أمام العالم حتى يتحرك ويطرح عنه أردية الصمت المريب ؟

إن صرخات كثيرة اليوم تدوى . فى الوطن العربى - تطالب أمريكا ألا تكيل بمكيالين.. وأن تعامل إسرائيل كما تعامل العراق وليبيا وإيران وسوريا.. إنها تطالب كل دول المنطقة بالتخلص من أسلحة الدمار الشامل.. وتشجع طفلتها المدللة . إسرائيل . على امتلاكها وتطويرها لتظل شوكة فى ظهر العرب..

أما آن أن يقف العرب اليوم بكل قوة وفهم ووعى للمطالبة بمعاملة إسرائيل بنفس الأسلوب.. أظنها فرصة ذهبية اليوم . بعد إعلان ليبيا التخلص من أسلحتها ـ المطلوب فقط ـ وليس هذا مستحيلاً ـ أن يخطط جيدًا لهذه الوقفة سياسيًا ودبلوماسيًا وإعلاميًا.. فنحن أصحاب حق.. وأصحاب منطق.. ونطلب بالعدل..

ماذا لو وجهنا إعلامنا وفضائياتنا العربية فى هذا الاتجاه الصحيح بخطة إعلامية عربية نتخلى فيها عن ذواتنا وضغائننا وأطماعنا الصغيرة.. ونضع مصلحة أمتنا العربية فى الصدارة.. بهدف إنقاذها من طغيان هذا العدو المشترك.

لقد ساقت لنا الأقدار هذه الفرصة كما ساقت من قبل حصان ريتشارد الذى سقط لأن نعله نقص مسمارًا.. وأظن أننا لو أخلصنا وتوحدت جهودنا وعزائمنا فسوف ننتصر فى هذا الموقف الإعلامى الحاسم ونسقط إسرائيل من فوق حصانها الجامح.

لغتنا العربية بين الإعلام والتعليم

- من يحمل مصباحه خلف ظهره يرسل ظله أمامه

(ديوجين)

- أنا البحر فى أحشائه الدر كامن

فهل سألوا الغواص عن صدفاتى

(حافظ إبراهيم)

تشكل اللغة العربية أحد المحاور الرئيسية فى منظومة الهوية الثقافية العربية.. والحديث عن اللغة العربية فى هذا الإطار يحيلنا إلى مجموعة من الأفكار التى تتعلق بالوجود اللغوى فى وسائل الإعلام من ناحية.. وفى مؤسسات التعليم من ناحية أخرى..

ولا شك أن لغتنا تجىء على قمة العناصر المستهدفة من أعدائنا؛ لأن اختراقها يعنى ضمنا اختراق المجتمع واختراق ثقافته.

ويعرف المعجم الفلسفى اللغة بأنها نسق من الإشارات والأصوات المتعارف عليها للتعبير عن الفكر وللتواصل بين الناس.. بل إن اللغة توجد حيث يوجد العالم. كما يقول هايدجر . وحيث إن التاريخ لا يكون إلا فى عالم.. فحيث توجد اللغة يوجد التاريخ.. وحيث تكون اللغة تكون المشاركة فى الشعور المشترك بالمواقف بين الناس والمشاركة فى فهم الوجود مع الغير[1].

---

(١) المعجم الفلسفى: د. عبد المنعم الحفنى – مادة لغة – الدار الشرقية ١٩٩٠م.

ندرك من هذا التعريف خطورة وجود لغة مشتركة تكاد تكون المحور الذى يجتمع حوله مجموعة البشر.

فإذا أدركنا أن اللغة العربية هى لغة القرآن الكريم نقف تمامًا على خطورة بقائها وتأثيرها فى نفوس المتكلمين بها من المسلمين.. خاصة العرب منهم..

ومن ثم فإن حربًا تستهدف اللغة العربية إنما تريد أن تسقط جدارًا قويًّا من بناء هذه الأمة..

وأول هذه المشاكل المتعلقة باللغة العربية هو ما يعرف بثنائية اللغة أو ازدواجيتها، ولا نود أن نسلم بخطورة هذه الازدواجية فهى موجودة فى كل لغات العالم.. لكن الكتابة هى الحد الفاصل فى تنمية الفصحى والحفاظ على وجودها فى مواجهة العامية.

وتلك مسئولية يتحمل جانبًا منها الإعلام المسموع والمرئى والإعلام المكتوب أيضًا.

إن الفضائيات العربية لا تلتزم الفصحى كلغة للخطاب الإعلامى.. وأصبحنا نحاول فهم اللهجات المحلية بقدر الإمكان.. ولن يمكننا ذلك؛ لأن هذه اللهجات تشكل أولاً خطرًا على وحدة الفكر العربى وثانيًا تتبدل فيها المعانى من دولة إلى أخرى.. ومن ثم فإن الفصحى تحل هذه المشكلة وتبقى على وحدة الفكر.

وفى هذا الصدد لا بد أن نعترف بأن الإغراق فى العاميات يجعل فكرنا محدودًا ولا يصل بنا إلى العالمية.. على حين تشكل الفصحى وجهًا مضيئًا لثقافتنا.. والقدرة على نقلها إلى اللغات الأخرى أكثر مصداقية..

المهم فى هذا المجال التأكيد على سلامة اللغة..

من هنا يمكننا أن ندرك خطر الدعوات وتشجيع القوى الأجنبية للهجات المحلية العربية والحث على الكتابة والتعليم بها.

وهناك ملاحظة جديرة بالتوقف والتأمل فى المجال اللغوى.. ذلك أن ثمة

لغات متعددة فى لغتنا الواحدة.. فكل فئة اجتماعية أو علمية لها لغتها الخاصة.. فلغة للصحافة وأخرى للأطباء.. وثالثة للمثقفين والأدباء.. ورابعة للمهندسين.. وهكذا.. وربما دعا ذلك التعدد إلى تقريب المصطلحات فى الثقافة العربية خاصة المصطلحات العلمية لتأكيد الهوية العربية والتمسك بقيمها مع الأخذ بعلوم العصر التى تضيف إلى ثقافتنا..

ولعلنا نذكر بكل الصدق جهد مجمع اللغة العربية فى هذا المجال منذ بدأه محمود تيمور واستمرارًا بجهد العلماء فيه حتى اليوم.. ويبقى أن تنشر هذه الأبحاث على نطاق واسع حتى تقف فى وجه محاولات تشويه لغتنا العربية ووصفها بالعجز..

ولا بد أن نعترف بواقعنا اللغوى اليوم على المستوى الثقافى والإعلامى.. فلغة الصحافة ربما كانت أقرب المستويات اللغوية إلى الفصحى.. أما لغة الإذاعة فهى أمام مستمع بأذنيه.. حيث تشكل الأذن مجمع الحواس كلها.. ومن ثم تلجأ الإذاعات العربية إلى التبسيط والتراخى فى الاهتمام بمستوى اللغة ظنًّا من القائمين عليها أن المستمع لا يستطيع إدراك المعنى..

ولا يظن أن هذا الخوف ينسحب على الإذاعات الأخرى المنافسة فالإذاعة البريطانية تتمثل الفصحى فى أسمى بلاغتها وأدائها.. وكذلك الإذاعات الأخرى الموجهة إلينا بالعربية.

ونرى أن الإذاعات العربية حينما تفترض جهل المستمع وأميته.. إنما تفقد ببساطة عنصرًا مهمًا من رسالتها الإعلامية وهى بث اللغة السليمة ليحاكيها المستمع..

أما التليفزيون فنحدث عنه بلا حرج حيث تقتصر الفصحى - فيما نظن - على نشرات الأخبار والتعليق السياسى المكتوب وتندر فى البرامج الأخرى بل تكاد تختفى.. إلى جانب غلبة الإعلام الترفيهى على الإعلام الثقافى.. واستخدام اللهجات المحلية المختلفة:

ومع أن لغة الصحافة تظل أقرب إلى مستوى الفصحى.. فإن الصحافة الثقافية تكون أكثر حرصًا على هذا المستوى من صحافة الخبر..

والأصل فى الخطاب الثقافى والإعلامى أن يسأل الكاتب أو المتحدث نفسه لمن يكتب ومع من يتحاور.. وعليه أن يختار المستوى اللغوى الفصيح المناسب ليؤدى دوره..

وهنا تثور قضية اللغة بشكل آخر..

فالبعض ينفر من استخدام العربية بحجة أنها لغة معقدة.. لكن نظرة صادقة إلى لغتنا العربية ترد على هذا الاتهام الظالم.

إن لغتنا تتميز بالثراء فى مفرداتها ومترادفاتها.. ومن ثم فهى متعددة المستويات من التبسيط إلى التعقيد.

والقابض على لغته قبضًا جيدًا يستطيع ببساطة أن يختار المستوى الفصيح المناسب لأى متلقٍ يواجهه..

نحن لا نتمسك بلغة العصر الجاهلى ولا العصر العباسى.. ولا لغة المتنبى..

إنما اللغة كائن حى..

وعلى حد قول طه حسين: لغتنا العربية يسر لا عسر. ولنا أن نضيف إليها ألفاظًا لم تكن مستخدمة فى العصر القديم.

المشكلة إذن فى تعليم اللغة وفى إمكانية السيطرة عليها.. وليس العيب فيها وإنما فى من يستخدمها وينطق بها..

ويجرها الحديث إلى إشكالية تعليم اللغة وآدابها فى مدارسنا وجامعاتنا..

إن طرق تدريس اللغة العربية وآدابها فى مدارسنا طرق تتميز بالعقم والتخلف[1]، حتى إن تلاميذنا ينتقلون إلى الدراسة الجامعية دون أن يحصلوا

---

(١) انظر فى هذا السياق البحوث الميدانية: قيام جلوس – ثقافات التعليم فى مصر.. لعدد من الباحثين إعداد د.ليندا هيريرا (مجلس السكان الدولى ٢٠٠٣م) ص٢٣٨ وما بعدها.

مبادئ اللغة أو يتعرفوا على آدابها بالقدر الكافى.. ولنأخذ حصة التعبير ـ ضمن تعليم اللغة العربية ـ مجالاً للعرض.. حيث أثبتت البحوث الميدانية نتائج فى غاية الأهمية.

إن التعبير ينقسم إلى شفوى (ويعرف بالمحادثة أو الحوار المفتوح أو الإنشاد الشفوى) وتحريرى (ويعرف بالتعبير الكتابى)..

الأول تبدو أهميته فى كونه أداة اتصال مباشر سريع ولحظى بين المعلم والتلميذ أو بين التلاميذ فيما بينهم.. أما الثانى فهو أيضًا أداة اتصال غير مباشرة بين التلميذ والمعلم.. كما ينقسم التعبير إلى تعبير وظيفى وآخر إبداعى.. فالوظيفى يتمثل فى المحادثة والإخبار بتقارير أو إرشادات أو كتابة رسائل أو نشرات.. والإبداعى هو ما يؤثر فى الوجدان من أفكار ويتمثل فى المقال والقصة والشعر..

وقد كشف البحث الميدانى عن تقليدية شديدة فى موضوعات التعبير فى المراحل المختلفة.

ففى الصف الخامس الابتدائى مثلاً انحصرت الموضوعات فى:

- نظافة القاهرة.
- عيد الأضحى.
- حرب أكتوبر.
- إنجازات مبارك.
- الإسراء والمعراج.
- عيد الأم.
- العيد.
- ليلة القدر.
- تلخيص قصة قرأتها.
- نداء إنسانى إلى بوش بعدم ضرب العراق.

أما في الصف الثالث الإعدادي فقد كانت الموضوعات تدور حول:

- رعاية الدولة للرياضة.
- ألوان النشاط بالمدرسة.
- القاهرة مدينة نظيفة.
- توشكى أرض الخير.
- القدس.
- فضل المعلم.
- خطاب إلى الرئيس الأمريكى بوش بعدم ضرب العراق.

ثم ننتقل إلى الصف الثالث الثانوى والذى يمكن أن نعده نهاية مرحلة مع اللغة.. لتكون الموضوعات فى دائرة:

- الوحدة الإنتاجية ضرورة لكل مدرسة.
- الإدمان والمخدرات وخطر ذلك على شبابنا.
- مأساة فلسطين.
- السلام صوت العقل.
- الأخلاق الحميدة عماد الأمم القوية.
- خطورة أسلحة الدمار الشامل على منطقة الشرق الأوسط.
- المرأة عماد قوى وشريك فاعل فى المجتمع.
- الوحدة الوطنية.

وحينما نحلل هذه الموضوعات فى المراحل الثلاث ندرك ما يلى:

١- تشترك الموضوعات السابقة غالبًا - فى أنها تصنف ضمن (التعبير الوظيفى) إذ تفتقر جميعًا . فى كل المراحل - إلى التعبير الإبداعى أو الحوارى أو النقدى -

حتى إن تلخيص القصة (فى الصف الخامس الابتدائى) لا يتعدى مضمون القصة.

٢- القصد من هذه الموضوعات - كما نرى - هو تكريس الواقع والإعلاء من شأنه.. حيث يمكن أن نصنف الموضوعات إلى : موضوعات وطنية تتمحور حول إنجازات الحكومة وموضوعات حول الاعتزاز بالماضى الوطنى المصرى.. ثم موضوعات المناسبات الدينية أو القومية.

٣- إن هذه الموضوعات مفروضة فرضًا من قبل وزارة التربية والتعليم وليس فيها اختيار رغم أن (دليل معلم اللغة العربية) يؤكد ضرورة (حرية الطالب فى اختيار موضوعات التعبير).

٤- ينال موضوع التعبير (١٨درجة) من مجموع درجات اللغة العربية (٦٠درجة) أى ما يمثل ٣٠٪ من الدرجة.. على حين لا تمثل حصة التعبير سوى ١٠٪ من مجموع حصص اللغة العربية (١٠حصص أسبوعيًّا).

٥- حين تصاعدت الأحداث قبل بداية غزو العراق (٢٠٠٣/٣/٢٠م) برزت الثقافة الانهزامية أو ثقافة الاستسلام.. فجاءت موضوعات التعبير تشير إلى ذلك بوضوح (نداء إنسانى إلى بوش بعدم ضرب العراق) - (السلام صوت العقل)..

٦- بعد الغزو الأمريكى لم تتغير موضوعات التعبير..

نستخلص مما سبق أن السياق العام للمدرسة فى تعلم اللغة خاصة حصص التعبير تسيطر عليه القواعد واللوائح وينتمى إلى التعبير الوظيفى وليس الإبداعى، بل إن ما تنشده من إنتاج ثقافى يتراوح بين (التنميط الثقافى).. أو فرض خبرة المعلم على التلميذ دون أن يكون للتلميذ أى خيار فى ذلك..

والسؤال الآن الذى يتصل بموضوعنا.. ما العلاقة بين الخبرة الثقافية لمعلم اللغة العربية وعملية الإنتاج الثقافى فى أثناء حصة التعبير؟

يبدو أن أهم ما يميز هذه الخبرة هو ضرورة (المواءمة) حتى لا يقع المعلم تحت

طائلة المخالفات الرسمية.. ومن ثم يسود هذا الطابع كل ما ينتجه التلاميذ.. وإذا انتقلنا إلى طريقة تدريس النحو نجدها أيضًا تتميز بالعقم.. والتعقيد وثقل الظل..

ثم ها نحن نواجه بأسلوب أشد تعقيدًا فى تدريس آداب اللغة - خاصة الشعر - فإلى جانب أن المناهج تحرص على التحليل والتفسير والدخول فى متاهات النحو. فإن النصوص المختارة تصيب التلميذ بالغباء..

ودعونا نسأل مفتشى اللغة العربية - للمرة الألف - لماذا يحرصون على البدء بالشعر الجاهلى واختيار أصعب نماذجه.. وكأن المنهج لا بد أن يسير تبعًا للتاريخ الأدبى. وما الضير أن يبدأ المنهج بنصوص معاصرة فيها اللغة المعاصرة ثم حينما يكون التلميذ مستعدًا لدراسة العصر الذى سبق العصر الراهن نعطيه إياه وهكذا حتى ينتهى إلى العصر الجاهلى..

كما أن مناهج الأدب والنصوص للأسف تقف عند طه حسين والعقاد وشوقى وحافظ وعلى محمود طه وناجى.. وتسقط من تاريخ الأدب المعاصر نصف قرن من العطاء الشعرى والقصص والروائى..

ولا ندرى لمصلحة من نقف عند هذه الحدود.. ولا نعترف بمسيرة التقدم والتجديد.. أليس ذلك يصيب التلميذ بالتخلف.. بل يصيب الأمة كلها..!

ولو سلمنا - جدلاً - أن التلميذ يدرس ما يدرسه بقصد أن يغذى عقله.. فإن أسلوب التلقين يضيع عليه فرصة تثقيف نفسه.. فهو مطالب أن يملأ ورقة الإجابة فى نهاية العام بما حصله طوال العام.. ثم يخرج من قاعة الامتحان وقد تبخر كل شىء من رأسه وذاكرته..

ودعونا نسأل: ما الذى يتعلمه التلميذ من التلقين؟

إن حياة التلميذ داخل الفصل تبدأ وتنتهى بالتلقين - وتستبعد الفهم.. وإعمال العقل والتذوق.. يتعلم التلميذ أن يقبل دون اعتراض أو تساؤل سيطرة المنهج وسيطرة المعلم.

إن المعلم لا يستطيع أن يتيح للتلميذ أى مجال للاستقلال الذاتى فى الكلام أو الحركة أو الفعل، كما أن نظام الامتحانات يفرز النزعة الفردية ويكرس التنافس الفردى..

وفى النهاية.. نحن أمام ثقافة صغرى فى الفصل فى خصائصها الأساسية وهى جزء من ثقافة المدرسة التى هى جزء أيضًا من ثقافة المجتمع..

هل يمكن إذن - والأمر كذلك - تخريج جيل مثقف متنور معتز بلغته العربية.. مع ملاحظة أن ما يعيب تدريس اللغة العربية ينصرف إلى المواد الأخرى بنسب متفاوتة..

المهم فى الأمر أن يحفظ التلميذ - صمًا ويتبخر ذلك من ذاكرته فى آخر العام..

ترى هل سمع خبراء التربية والتعليم عن نظريات التربية عند أجدادنا العرب وكيف سبقت هذه النظريات ما يتشدق به علماء التربية فى الغرب.. أم أنهم قصروا اهتمامهم على الحفاظ على تقليدية التعليم..

يقول ابن خلدون فى مقدمته:

واعلم أنه مما أضر بالناس فى تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التأليف واختلاف المصطلحات فى التعليم.. وتعدد طرقها.. ثم مطالبة المتعلم التلميذ باستحضار ذلك..

ثم يقول: إن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدًا إذا كان على التدريج شيئًا فشيئًا وقليلاً قليلاً.. يلقى عليه أولاً مسائل فى باب من الفن هى أصول هذا الباب.. ويقرب له شرحها على سبيل الإجمال.. ويراعى فى ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه..

ولم يكن ابن خلدون وحده من راعى عقلية التلميذ واقترح تقديم الأيسر أولاً ثم الأصعب.. وإنما شغل ذلك مفكرين كثيرين منهم: الغزالى وابن مسكويه وابن سحنون وأبو الحسن القابسى وابن جماعة وإخوان الصفا وغيرهم..

ونلاحظ أن هؤلاء العلماء أدركوا أن عملية التدريس وعى وثقافة وأن المرحلة

الأولى من التعليم تمثل البنية الأساسية لمراحل التعليم ولهذا فإن الاهتمام بها يجىء فى مقدمته كل شىء.. بل لا بد أن يهدف إلى اكتشاف القدرات ويحسن توجيهها.. وينمى المواهب.. ويدرب على قوة الملاحظة ومعرفة العالم المحسوس.. إلى نهاية هذه المنظومة التعليمية الثقافية..

ما الذى يمكن أن نستنقذه الآن..؟

إن الأمر يتطلب ثورة على مناهج التعليم.. ولتكن هذه الثورة مشروعًا قوميًا من أجل الأجيال الجديدة..

ونتذكر بهذه المناسبة أننا فى الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى.. كان تعليم اللغة وآدابها فى دائرة الاهتمام أكثر منه الآن..

فكانت كتب المختارات والمنتخبات من الأدب العربى (لطه حسين وأحمد أمين) فى أيدينا للقراءة والثقافة..

وكانت القصة ذات الموضوع الواحد، أيضًا ضمن منهج اللغة العربية. وكانت حصة المكتبة إجبارية.. يطلب المعلم من تلميذ معين أن يقرأ كتابًا ويلخصه ويشرحه فى حصة (الخطابة).. ويكون التلميذ سعيدًا وهو يقف مكان معلمه يشرح ما قرأه والمعلم يجلس مع التلاميذ فى مقعد التلميذ..

أين هذا الأسلوب اليوم؟

ثم أين حصص الهوايات الفنية.. وإذا وجدت ينصرف عنها التلاميذ إلى الدروس الخاصة..

أين المعلم الذى يجلس فى مكتبه حتى تنتهى مواعيد الدراسة لعل تلميذًا يلجأ إليه ليسأله فى مادته..

أتذكر يومًا أن استدعانى (مركز تطوير المناهج بالوزارة) لكى أسجل بصوتى منهج اللغة العربية والدين ليكون دليلاً للمعلم نطقًا سليمًا.. ويومها رفضت ذلك وسألت سؤالين:

الأول: أتضمنون أن يستمع المعلم إلى هذا الشريط ويستفيد منه؟

الثانى: أصحيح أن هذا المعلم خريج لشعبة اللغة العربية فى جامعاتنا؟

ولم يرد علىَّ أحد !

لا نود أن نسترسل فى ذلك فما يدرس فى مادة الدين ليس بعيدًا عنا لقد تقلص المنهج.. وفرض على التلاميذ الصغار حفظ قصار السور فى القرآن (وكثير منها صعب الفهم).. وأظن أن ما يدرس الآن لا يمت إلى الثقافة الدينية بشىء!

إن لغتنا العربية هى قوام حضارتنا وثقافتنا.. وما يحدث فى مدارسنا من عدم اهتمام بتدريسها.. والاهتمام بتدريس اللغات الأجنبية يعد مؤامرة على أقدس عناصر هويتنا الثقافية.

* * *

[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]

* * *

المثقف العربى
بين السلطة والمجتمع

- إن السلطة أوسع من أن تختزل فى المؤسسات السياسية.

(الفيلسوف الفرنسى ميشيل فوكو)

- **لا يفوتكم أن تحتجوا على كل ما ترونه مخالفًا للقانون مهما كان صغيرًا فربما كان لهذا الأمر الصغير علاقة فى المستقبل بأمر كبير. فيتخذ سكوتكم فى هذا حجة عليكم.**

(سعد زغلول)

- **لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا**

(الأفوه الأودى)

كان لا بد أن نقترب من هذا الكائن الذى يصنع الثقافة.. ونتعرف على مشاكله وأوجاعه من خلال ما يقوم به وما يؤديه من دور يلتزمه طوال حياته.

ونحن فى هذا المجال أمام أطراف ثلاثة: السلطة .. المجتمع .. وبينهما المثقف.

والمثقف هنا للوهلة الأولى كأنه بين المطرقة والسندان.. ومن ثم علينا أن نحدد المفاهيم لهذه الأطراف الثلاثة والتى تتسع مع هدف هذا البحث.

فالمثقف ظل مصطلحًا غامضًا ومطاطًا يتسع أحيانًا ليشمل كل صاحب قلم وفكر ويضيق أحيانًا أخرى ليدل على المبدعين من شعراء وروائيين.

وأحيانًا يضم المثقف المفكر السياسى والاقتصادى والاجتماعى.. باعتبار هؤلاء يشكلون نبض المجتمع الذى يعيشون فيه.

ومن ثم يمكن معرفة المثقف بالنظر إلى موقفه من نوع المعرفة التى ينتجها.. أى أننا لا يمكن أن نتعرف على المثقف بدون التعرف على محددات ثقافته.

فإذا عرفنا الثقافة بأنها مجموع الفروض الأيديولوچية والسلوك المكتسب والسمات العقلية الاجتماعية والمادية المتناقلة والتى تميز جماعة اجتماعية بشرية.. أدركنا صعوبة أن نضع تعريفًا جامعًا مانعًا للمثقف.. وأدركنا أيضًا ضرورة ربط الثقافة المنتجة بالمثقف التى يصنعها وينتجها[1].

ولنتفق - تيسيرًا لبحثنا - أن نعرّف المثقّف بأنه الذى يمتلك مجموعة المعارف والخبرات التى تجعله واعيًا ومساهمًا فى خدمة المجتمع مستندًا فى موقفه إلى العدل الاجتماعى..

ومن ثم فإن المثقف العربى هو هذا الذى يتخذ مواقفه مع العدل الاجتماعى.. أى الذى يتحيز دائمًا لخدمة الناس ولو سبب له ذلك صدامًا مع السلطة..

وللأسف لدينا فى العالم العربى عدة فئات من المثقفين..

فئة المثقفين السلطويين.. وهؤلاء هم الموالون للسلطة المسيطرة سواء كانت عادلة أم ظالمة.. وسواء كان قرارها فى صالح المجتمع أم فى صالح فئة قليلة منه.. ويتمثل هؤلاء غالبًا فى الذين يعملون فى الصحف القومية أو الذين يحتلون مناصب فكرية ثقافية يخشون ضياعها وسقوطها من أيديهم..

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى: قاموس مصطلحات الإثنولوچيا والفولكلور - ايكه هولتكرانس ترجمة - د.محمد الجوهرى ود. حسن الشامى - دار المعارف ١٩٧٣م - بحث (المثقف العربى والدولة) - د.محمد حافظ دياب - بحث (المثقف العربى وسلطة التقليد) د. محمد سبيلا - الرباط - بحث (سلطة الثقافة) د. محمد عبد المطلب (مؤتمر اتحاد الكتاب ٢٠٠٣م).

وكثير من هذه الفئة للأسف.. يغير جلده بتغير السلطة.. فهم مع السلطة وقراراتها يهتفون لها ويزكون قراراتها ما دامت فى قمة الحكم.. ثم ها هم سرعان ما تتلون ألسنتهم بتغير السلطة فيعيدون ويكيلون المديح للسلطة الجديدة ويلعنون وينقدون السلطة السابقة.. لا لشىء إلا ليضمنوا بقاءهم فى مناصبهم.

والغريب أن مسئولية هؤلاء هو التأثير فى الرأى العام.. وسرعان ما يفيق الناس على مواقفهم ويفقدون ثقتهم فيهم.

وفئة أخرى من المثقفين على النقيض تمامًا يتمردون ويرفضون السلطة بكل ألوانها وأشكالها لمجرد أنها تحتل قمة الإدارة والحكم.. وهذه الفئة تتسم بالعصبية والاستفزاز ورفضها رفض سلبى.. لأنها لا تملك مشروعًا ثقافيًّا متكاملاً يبرر تمردهم ورفضهم لأى قرار سلطوى..

وفئة ثالثة.. هى المثقف الواعى بدوره.. لأن ما يهمه هنا هو مصلحة المجتمع.. ولأنه بشر يعيش مع البشر. يدفع ضرائب الدولة وعليه واجبات.. وله حقوق.. فهو فى نطاق هذه المنظومة يتحرك ويعبر بصدق عن موقفه.. ويتحمل تبعات هذا الموقف طوال عمره..

إن هذا المثقف يحتج على الظلم والفساد والقهر. ويقدم الدليل على ذلك ويحذر الناس منه.. بما يمتلك من قوة الكلمة التى قد تكون فى صورة مقال فى صحيفة.. أو قصيدة شعرية أو قصة أو رواية أو مسرحية.. أو ندوة مناقشة.. إلى نهاية هذه المنتجات الثقافية التى يلتزمها هذا المثقف..

وهذا المثقف أحسبه أكثر المثقفين وعيا ومعرفة بدوره.. لأنه ملتزم موضوعى عقلانى متجرد..

وبالتالى فإن صراع الفئات الثلاث فى المجتمع العربى شتت دور المثقفين وصنفهم هكذا تصنيفًا تستفيد منه أية سلطة فاسدة.

إن صراع هذه الفئات يوجد نوعًا آخر من السلطة هى سلطة (الثقافة) ـ كما يوضح د. محمد عبد المطلب ـ يكون لعنصر ثقافى مفرد من القوة ما يتيح له قدرًا

هائلاً من السيطرة والتأثير.. وقد يكون لشخصية ثقافية مفردة تدخل حاسم في مجرى الواقع.. ومن ثم فإن الخطاب الثقافي مرهون بالمثقف الذي يصنعه.

أما السلطة.. فقد تعددت مفاهيمها أيضًا.. فمنها ما يعني المؤسسات السياسية في الدولة.. ومنها ما يشمل دائرة أوسع من ذلك ليشمل وظائف من التنظيم والتوجيه والإدارة والرقابة والثواب والعقاب والقمع وغيرها.

ويذكر د. محمد سبيلا في هذا الصدد: إن هذه النظرة الموسعة للسلطة تتضمن عددًا من المسلمات والخلفيات الفلسفية أهمها:

١- أن المجتمع عبارة عن مجال قوى وصراع قوى وليس جنة قائمة على التواد والتعاطف والتعاضد.. إنه شبكة قوى تتصارع حول السلطة والثروة والحظوة باستخدام جملة استراتيجيات.

٢- السلطة ليست وحدة أو كلاً متجانسًا ذا مركز بل هي سلسلة شبكات تخترق وتشكل الجسم الاجتماعي كله إلا أنها تجتمع وتنتظم عبر بعض المحاور والمراكز. فالتعدد والتشتت لا يعني الفوضى والتسيب.

٣- حالة السلم ليست معطى قبليًا بل هي نتيجة توازنات.. إنها حالة ثانوية وليست حالة أصلية.. الحالة الأصلية هي الصراع.. ودور السلطة هو الحرص على بقاء التوازنات لإذكاء وتمتين حالة السلم.

٤- السلطة هي جملة علاقات وإجراءات وممارسات وليست كيانًا جوهريًا ملموسًا.

٥- حيثما هناك سلطة فهناك هيمنة وسيطرة ومقابلها مقاومات متفاوتة الدرجة.. ومحاولات أخرى للإفلات.

والآن هل يصدق هذا التحليل على السلطة في العالم العربي..؟

يبدو أن هناك تشابهًا في الأنظمة السياسية العربية مهما اختلفت مسمياتها وشرعيتها وطبيعتها..

فالسلطة فى العالم العربى هى رأس الحكم وهى وحدها صانعة القرار.. وهى أيضًا مركزية.. بالرغم من تعدد أجهزة ومجالس التشريع..

ومن ثم يجد المثقف العربى نفسه أمام سلطة سياسية محافظة.. ومناهضة للحريات بنسب متفاوته.. بل يجد نفسه أيضًا أمام عدد آخر من السلطات الأيديولوچية والمعنوية لمجتمع تداهمه الحداثة والتغريب بأشكال ضاغطة وبتوازنات باطنها سياسى وظاهرها حداثى متطور متقدم..

ولهذا وجدنا انقسامًا آخر فى ساحة الثقافة بين المثقفين.. فريق يتهم الآخر بالسلفية والمحافظة.. وهذا يتهم الأول بالارتماء فى أحضان الغرب..

إن المثقف العربى اليوم يتصارع مع ذاته.. والسلطة - ما دام المثقف بعيدًا عنها- فهى لا تتدخل فى هذا الصراع بل تقف موقف المتفرج..

والعلاقة بين المثقف والسلطة السياسية.. علاقة قديمة جدًا.. منذ كتب الفلاح الفصيح شكاواه فى صاحب المزرعة (تحوتي) (نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد).. وحينما لم تستجب السلطة له.. بعد أن شكا إليها تسع شكايات صاح بأعلى صوته دون خوف:

وا أسفاه..

على أيدى القاضى..

ضاع الخير وحل الشر..

فمن يملك أن يحكم بالعدل على القاضى..

وقد سلب فقيرًا مثلى ماله..

وناصر أشرار الناس على الضعفاء..

ومال عن الحق إلى الباطل..

ما أكثر أحزانى اليوم..

وهى تحفزنى أن أرحل من وجه الناس..

فما عاد القاضى يحكم بالحق..

بل يتظاهر بالعدل خداعًا..

.. يا قاضى الوادى..

ماذا الآن أقول..

إهمالك لى..

سوف أراه يسقطك عن الميزان..

جشعك يؤذيك غدًا..

وسيخلق نهمك لى أعداء..

وسيجنى صمتك يا قاضى العدل عليك[1] !

تلك العلاقة المتوترة ظلت على مدى التاريخ بين المثقف والسلطة فى شد وجذب.. ونادرًا ما كانت هذه العلاقة تسير بلا مشاكل.. ولم يخرج المثقف الواعى عن هذه العلاقة المتوترة.. ويؤكد إدوار سعيد أن ما يميز دور المثقف هو مواجهة السلطة بالحقيقة والانتصار للضعفاء والمضطهدين والتعبير عنهم وتمثيلهم والسعى إلى تغيير الأوضاع الكابحة.. بإثارة مناخ أخلاقى يرفض الظلم والزيف.. والتسليم بالأمر الواقع.. والجمع بين الموهبة والعمل الدءوب لتوسيع وتعميق معارفه.. وطرح الأسئلة.. وكسر القوالب الجامدة والأفكار الجاهزة..

وعنده.. فكل عمل للمثقف هو مزج معقد بين الخاص والعام.. اعتبارًا من أنك تدخل العالم منذ اللحظة التى تكتب فيها كلماتك ثم تفسرها.. ومن حق البشر كلهم توقع معايير سلوكية لائقة من القوى الدنيوية أو الأمم، وأن الانتهاكات المتعمدة أو الناتجة عن إهمال هذه المعايير يجب أن يشهد ضدها ويحاربها بشجاعة..

ولأن المثقف العربى قد عانى كثيرًا حينما اتخذ مواقفه من السلطة

(١) انظر: الشعراء والسلطة: أحمد سويلم – دار الشروق ٢٠٠٤م.

السياسية.. فإنه - كما ذكرنا - وبعد أن بح صوته - وجد أن نكسة ١٩٦٧م هى نكسة حلمه وثقافته وحضارته..

ومن ثم أخذ يتخلى شيئًا فشيئًا عن موقعه الوطنى.. وهنا هجمت على موقعه أقلام آثرت أن تظل فى الساحة برغم كل شىء.. ناجية من الاضطهاد والإحباط..

ولهذا وجدنا السلطة تنظر إلى الثقافة والمثقفين نظرة مختلفة..

- إما أن تخضع برامج المثقفين إلى مؤسسات تتحكم فيها السلطة وتوضع لها خطط مرسومة مقبولة من هذه السلطة.
- وإما أن تهمش الثقافة والمثقفين.. وتجعل كلماتهم تضيع فى الهواء بلا طائل.. تحت شعار الديموقراطية.. وهى فى الحقيقة (حرية قول) وليس حرية حوار أو جدل..

انسحب المثقف العربي تدريجيًا من الساحة.. واحتلتها فئة أخرى صنعتها السلطات السياسية تدين لها بالولاء..

وأضحى المثقف والثقافة فى أزمة من شقين:

الشق الأول: أزمة بينه وبين فئات المثقفين الآخرين.. تقوم على الضغائن والصراع والمعارك الصغيرة الشخصية بلا طائل.. وهذا كله يصرف المثقف عن التفكير أو التعبير عن قضايا أكبر من مجرد المعارك الشخصية.

الشق الثانى: أزمته مع السلطة.. وهذه الأزمة فى نظرنا قد فازت فيها السلطة على المثقف..

أما لماذا كان الفوز للسلطة.. فإن المثقف حينما أخذ يتخلى عن مواقفه فى الساحة.. سبب ذلك سعادة وراحة للسلطة.. فلم تعد معارضة السلطة من القوة بحيث تثنيها عن مسيراتها الخاصة.. ثم ها هو المثقف بعد ما يقرب من نصف قرن يحاول أن يستعيد مكانه مرة أخرى.. ونسى أن كل شىء قد تبدل فى المجتمع.. لم

تعد الوجوه هى الوجوه ولا الاستراتيچيات هى الاستراتيچيات ولا الأحزاب هى الأحزاب..

لقد سمحت السلطة للمثقف أن يكتب ما يشاء دون أية رقابة أو محاسبة؛ لأنها لا تقرأ ولا يهمها ما يقال !

ومن ثم أصمت السلطة آذانها عن أى نقد أو صراخ أو احتجاج.. وأخذت تباهى بأنها تعطى الحرية فى التعبير دون حساب..

ومن ثم فازت السلطة فى هذا الموقف المتصادم..

إن المثقف العربى اليوم يحاول أن يجد له موقعًا على خريطة العقل الثقافى.. ولأنه لا يجد بابًا مغلقًا أمامه فى هذه الخريطة.. أدرك أنه إما ضل طريقه.. وإما سقط فى جب لا يخرج منه..

السلطة ومؤسساتها الثقافية

كان لا بد من وجود مؤسسات ثقافية تنظم دور المثقف وتحيطه بالرقابة والحماية كذلك ومن ثم وجدت فى العالم العربى أنماط متعددة لهذه المؤسسات التابعة للسلطة.. وأخرى (أهلية) غير رسمية..

ويمكن تقسيم هذه المؤسسات إلى ما يلى:

أولاً: مؤسسات رسمية تابعة لوزارات الثقافة تصرح بها المؤسسة السياسية سواء أكان هذا من باب استكمال الشكل الإدارى أو ترشيد الأداء الثقافى كما تراه السلطة، وهذا الشكل من المؤسسات هو السائد فى العالم العربى.. وغالبًا ما يقوم بالخدمة الثقافية المطلوبة على وجهين: وجه وظيفى يهمه تقديم الخدمة الثقافية واحتواء الأنشطة والندوات والمؤتمرات الرسمية فى إطار الثقافة.. والوجه الآخر وجه رقابى يقوم على ضمان سلامة ومسيرة الثقافة فى إطار الخطة السياسية.

ولا يخلو الأمر أحيانًا من ترك مساحة للتجاوز. وهذه المساحة بالرغم من وجودها محسوبة تمامًا.. وكأن السلطة تريد من وجودها أن تبرهن على حرية الرأى وحرية التعبير.

ونستطيع أن نجزم أن راعى الثقافة الرسمية فى أى بلد عربى هو الذى يصبغ العمل الثقافى بصبغته الخاصة.. فإذا كان مفكرًا سياسيًّا.. نحا بالثقافة إلى خدمة السياسة.. وإذا كان أديبًا نحا بها نحو الإبداع الأدبى الخالص.. وهكذا..

ثانيًا: مؤسسات غير رسمية.. فى صورة اتحادات أو جمعيات ثقافية وأدبية.. وبالطبع تعانى هذه المؤسسات ماديًّا.. ولهذا فإن نشاطها محدود.. وصوتها منخفض وتأثيرها ضعيف.. وكل ما تستطيعه السلطة معهم أن تقدم لهم معونات مادية قليلة حتى لا تمكنهم من ممارسة نشاط متسع يخشى من تأثيره..

والمثقفون فى الوطن العربى يعانون من مشكلة خاصة.. ذلك أن هذه الاتحادات والجمعيات الأدبية لا تصل إلى درجة (النقابة) فى التصنيف الإدارى للدولة.. لأنه لا توجد مهنة عربية تسمى (مثقفًا أو أديبًا أو شاعرًا) ومن ثم فإن كل مثقف يمكن أن يمارس عملاً ما يقتات منه ويتعيش هو وأسرته على ما يحصل منه من مال.. ثم ها هو يمارس الكتابة على هامش حياته.. ونلاحظ أن عددًا من المثقفين ساقهم قدرهم.. أو طلب منهم أن يعملوا فى المؤسسات الثقافية الرسمية.. فصاروا بين الرمضاء والنار كما يقولون؛ لأنهم محسوبون هكذا على المؤسسات الرسمية التابعة للسلطة.. وغالبًا ما يحتم عليهم هذا الوضع الوظيفى.. الانتماء إلى المؤسسة.. واتخاذ الموقف الرسمى والتخلى عن المواقف الرافضة أو الناقدة للسياسة الثقافية..

كما أن فريقًا آخر من المثقفين أعضاء فى لجان تشكلها هذه المؤسسات دون أن يكونوا عاملين بها.. وهؤلاء يمكن أن يكونوا أكثر حرية من الفريق السابق.. وإن كانوا أيضًا محاصرين بهذا الإطار المريب..

هذا بالإضافة أن هذه المؤسسات الرسمية تضم مؤسسات صغرى تابعة فى مجالات مختلفة مثل مؤسسات النشر الوطنية التى تصدر الكتب والمجلات ويعمل بها أيضًا مثقفون كثيرون.

وعلى الطرف الآخر يوجد الناشر الخاص الذى يملك حرية أكبر فى نشر كتبه بعكس المؤسسات التابعة للدولة..

وهكذا يجد المثقف نفسه حائرًا بين التعامل مع المؤسسة الثقافية الرسمية التى يتسع نطاق عملها الثقافى والبعد عنها حتى لا يحسب ضمن المثقفين الرسميين.

لكن نظرة واقعية إلى الأمر تؤكد لنا أن بعض المؤسسات الرسمية فى بلادنا تحاول أن تؤكد وجودها إلى جانب المثقفين بصورة مرضية، وحينما يحدث موقف تتراجع فيه يثور عليها المثقفون ويطالبون بعدم التعامل معها..

ونظن أن المشكلة تكمن فى موقف المثقف نفسه.. ومدى تمسكه بموقفه الشريف.. واستغلال تلك المساحة الممكنة المتاحة من المؤسسات الرسمية فى إبداء رأيه وحريته فى التعبير. خاصة أن هناك اليوم وعيًا ثقافيًا عامًا بخفايا القرارات الثقافية سرعان ما يدركها المثقفون ويحتجون عليها.. وينتقدونها بعنف..

كما أن اختلاف آراء المثقفين أمام أى موقف تتخذه المؤسسة الرسمية يظهر المثقفين بالتشرذم والصغار. من ذلك اختلافهم حول جوائز الدولة والجوائز التى يمنحها الأفراد.. والتى تمنحها المؤسسات الأجنبية.. لا نكاد نجد إجماعًا ثقافيًا حول رأى واحد.. فى الوقت الذى يحتم علينا اتخاذ هذا الإجماع.

إن أمام المثقف العربى اليوم مسئولية الدفاع عن مكاسب الثقافة والحضارة العربية.. وما حدث فى العراق وما يحدث فى فلسطين من إبادة المؤسسات الثقافية فى ظل العنف الأمريكى والبريطانى وعجز المثقفين العرب وعجز السلطات الحاكمة يدل على عظم هذه المسئولية..

لقد نهبت متاحف بغداد ومكتباتها.. وجامعاتها ومؤسسات التعليم فيها وتراثها التاريخى بأكثر مما فعله المغول القدماء..

كما اجتاحت إسرائيل كل مؤسسات فلسطين الثقافية دون أن يحرك أحد ساكنًا أمام جبروت الصهيونية..

ومع كل هذا تعلن الولايات المتحدة - التى احتلت العراق - باحترام حقوق الإنسان والتراث الإنسانى.

ماذا تفعل إذن وزارات الثقافة فى كل البلدان العربية، والتى يناط بها الحفاظ على تراث الأمة.. أم أن العراق وفلسطين بعيدان عن اهتمام هذه الوزارات العربية..

بقى أن نقول هنا إن تدمير التراث الثقافى لأى بلد عربى هو تدمير للهوية العربية.. وأن الخطر الذى حل بهذا التراث يمكن أن يحل بأى تراث فى أى بلد عربى آخر أمام الإرهاب الأمريكى الصهيونى..

وفى هذا السياق.. من المحتم أن نعترف أن تخلى المثقف عن دوره منذ ١٩٦٧م انعكس بشكل مباشر على مسيرة المجتمع العربى السياسية والثقافية والاجتماعية.. فقد كان المثقف هو ضمير المجتمع والمعبر عن أوجاعه..

وها هو المجتمع العربى يعانى انقسامات سياسية وثقافية واجتماعية.. بل اختلف الكثيرون فى قراءة الواقع العربى الراهن فبعضهم قرأها أيديولوجيًّا والبعض الآخر سياسيًّا.. وقرأها آخرون ثقافيًّا.. وقرأها فريق اقتصاديًّا.. وهكذا ضاعت ملامح الأزمة وتعددت وجوهها ..

ونظن أن الشاعر العربى قد عبر عن حالتنا هذه فى قوله:

وإذا فرق الرعاة اختلاف ∴ علموا هارب الذئاب التجرى

لقد تفرق المجتمع العربى.. وكان لا بد للذئاب أن تدخل إلى ساحته.. فدخلت أمريكا بثقلها تعبث فى خريطته بلا حياء.. دخلت سياسيًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا.. وعسكريًّا..

نوع جديد من الاحتلال.. لكنه احتلال من أجل محو الهوية العربية وتشويهها حتى لا يبقى لنا شيء نعتز به ونمجده.

إن هذا الواقع يفرض علينا مستقبلاً غامضًا فى اختيارات متعددة.. وهو مستقبل تلعب فيه التكنولوجيا وثورة المعلومات دورًا متميزًا..

الاختيار الأول: هو إغراء المثقفين بالخدمات الثقافية التى تمتص طاقاتهم النقدية للسلطة بإعلان المسابقات.. والانضمام إلى اللجان الثقافية وتهميش أدوارهم.. وإقامة الندوات والمؤتمرات بعناوين ثورية لكنها فارغة المضمون.

الاختيار الثانى: التدهور الثقافى باعتبار أن السلطة مشغولة بقضايا أكبر من مجرد أزمة المثقفين.. وأن على المثقفين - باسم الوطن - أن يكونوا معها لا ضدها فى قراراتها المصيرية وعلاقاتها الخارجية.

الاختيار الثالث: اقتناع السلطة بدور المثقف وديموقراطية الحوار.. وحرية التعبير والاستفادة من هذا كله فى قراراتها السياسية.. ولن يكون هذا متاحًا بغير إعادة بناء الثقة بين الطرفين بعد أن انهارت منذ زمن طويل..

تلك هى خيارات المستقبل أمام المثقف العربى.. ومع صعوبة تقبل أى هذه الخيارات فإن الظروف التى تمر بها أمتنا العربية وما تعانيه من محن التشتت والتشرذم والاستسلام للأمر الواقع.. تجعلنا لا نطلب من المثقف العربى أن يبتعد عن هذه الدائرة وأن يكون له موقفه.. فهو صاحب رسالة ومطالب بألا يصمت على خطأ.. حتى لو لم يجد آذانًا صاغية.. وأن يواجه الواقع المتهرئ بواقع أفضل ويعمل مع غيره على تحقيقه من خلال الثقافة، وباعتباره ممثلاً لقوى المجتمع العاملة الكادحة فإن عليه ألا يستسلم للصمت.. حتى لو اعتبرته السلطة منافسًا لها.

وعليه أن يدرك تمامًا أن جانبًا كبيرًا من المنتج الثقافى ينتمى إلى حقل الإعلام من أجل القضاء على الثقافة الجادة المؤثرة.

إن المثقف العربى اليوم عليه مسئولية المشاركة بالرأى والموقف فى قضايا الأمة الراهنة:

- عليه المشاركة فى مواجهة العدوان الصهيونى.. والوقوف إلى جانب المقاومة الفلسطينية المشروعة وفضح تلك الادعاءات التى تقلب الحقائق وتصور المقاومة المشروعة على أنها إرهاب.
- عليه المشاركة فى مواجهة كل محاولات الاختراق الأمريكى الصهيونى للثقافة العربية بقصد القضاء عليها أو تشويه صورتها وإدانة وفضح مؤيدى هذا المخطط من الكتّاب العرب وغيرهم الذين تجذبهم أضواء المخطط الزائفة.
- عليه ضرورة ضبط المصطلحات النقدية والأدبية والثقافية فى الثقافة العربية إلى مفاهيم متجانسة بدلاً من استيراد تلك المصطلحات من الغرب وفرضها فرضًا على ساحتنا الثقافية بمناسبة ودون مناسبة.
- عليه المطالبة الدائبة بتوفير المناخ الديموقراطى للمثقف العربى ليتمكن من التعبير بحرية عن مواقفه.. وإثارة الجدل مع السلطة فى الموضوعات المطروحة للحوار.

والسؤال الذى يمكن أن ننهى به وقفتنا هذه هو:

إلى أى مدى يمكن للمثقف العربى الإفادة من هامش الحرية الذى يضيق ويتسع تبعًا لرؤية السلطة واحتياجاتها وأيديولوجيتها..؟

وإلى أى حد يمكن للمثقف أن يحيل هذا الهامش من مجرد قشرة إلى عمق وفعل..؟

* * *

[illegible]

- [illegible]

- [illegible]

- [illegible]

- [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

* * *

شبابنا والثقافة

- **من الممكن أن يخسر الشباب بعض حيواتهم لو ظلوا يعيشونها من وراء ستار القلق والخوف من المستقبل.**

(د. سيد صبحى)

- **أمة بلا شباب أقوياء هى أمة بلا مستقبل محكوم عليها بالفناء.**

(قول مأثور)

لم يخبرنا الشاعر الكبير أبو العتاهية ما وراء قوله:

ألا ليت الشباب يعود يومًا ∴ فأخبره بما فعل المشيب

ولم نعلم ما الذى فعله به المشيب حتى يشكوه إلى الشباب أو ربما فعل به العكس فاستحسنه عن الشباب.

ولا بد أن تثور قضية الشباب ودوره فى إصلاح المجتمع كلما مر المجتمع بأزمة.. وهذه الأيام تمثل أكثر فترات الأمة العربية احتياجًا إلى شبابها.. فأين شبابها اليوم وماذا يصنعوّن.. وما قضاياهم التى يهتمون بها..؟

ربما كان لنا فى شبابنا قضية أو قضايا.. تتعلق بتلك التحولات الاجتماعية والسياسية التى مر بها الوطن العربى فى النصف الأخير من القرن العشرين.. وكان علينا أن نشارك فى صنعها.. ونلاحقها.. ونبدى عمق حبنا وانتمائنا عمليًا..

ومن ثم عانينا كل هذه التغيرات – سلبًا وإيجابًا – منذ ثورة ١٩٥٢م مرورًا بعدوان ١٩٥٦م ونكسة ١٩٦٧م وحرب أكتوبر ١٩٧٣م ..

وها هو جيل الشباب الجديد. الذى لم يعش كل هذه المتغيرات. ليواجه قضايا. هى فى نظرنا أكثر حدة وربما أقوى تأثيرًا على نفسيته وعقليته. ومن أبرزها قضايا العولمة والهوية والانتماء.. وهى ليست قضايا خاصة بالشباب وحده وإنما تفكر فيها الأجيال بأسرها.. وإن كان مستقبلها بيد الشباب..

صحيح تختلف قضايا شباب اليوم عن قضايا شباب الأمس.. فقد كان المناخ الثقافى والاجتماعى والسياسى بالأمس يتيح إثبات الذات والهوية بصورة أفضل وأكثر وضوحًا عما هو الآن فى ظل المخططات التدميرية الخارجية لوجدان الشباب العربى..

ومن ثم فشباب اليوم يعانى مشاكل كثيرة.. وليس معنى ذلك أننا لم نكن نعانى مشاكل كثيرة أيضًا.. لكن النوعية هنا تختلف عن نوعيتها بالأمس.

وليسمح لى القارئ أن أسوق تجربة حية مع شباب اليوم.. من خلال لقاء دام ثلاث ساعات فى مكتبة مبارك بالجيزة (سبتمبر ٢٠٠١م) ومعى الصديق الدكتور مصرى حنوره أستاذ علم النفس.

لقد تحدث د. مصرى فى البداية عن تجربته الخاصة فى التعرف على هموم الشباب من خلال عينة بلغت ثلاثة آلاف شاب ليجىء هم التعليم وطرق التدريس فى صدر هذه الهموم بما يتضمنه من عوامل القلق والخوف والرهبة فى أداء الامتحان.. ثم مشاكل ما بعد التخرج والبطالة وغيرها من المشاكل المصاحبة.. على حين يأتى الاقتصاد ومشاكله فى المرتبة الثالثة.. ربما لأن جيل الشباب يركز كثيرا على التعليم والتخلص منه أكثر مما يركز على عوامل أخرى.

ثم يحاول د. مصرى أن يتصور إمكانية الخروج من هذا المأزق فى منظومة ثلاثية هى: الوعى بالتاريخ والثقافة والهوية الوطنية والقيم والأصالة.. ثم امتلاك الإرادة الفاعلة.. ثم التوجه إلى المستقبل بالإبداع والعمل وتخيل عالم أفضل..

ثم يبدأ حوارنا مع الشباب ويمتد بيننا وبينهم جسر من القلق والحيرة.. فالشباب يشعر بالغربة عن نفسه.. وعن مجتمعه.. وعن ثقافته.. وهو متشكك فى كل شىء يتلقاه من وسائل الإعلام المختلفة.. تلك الوسائل التى تحاصره ليل نهار ولا تترك له مساحة خاصة للتأمل.. وهو أيضًا يلجأ إلى محاولة كسر هذا الحصار عن طريق محاكاة الآخر (الغرب) فى مظاهر الملبس والمأكل والسلوك والترفيه.. وهى مظاهر لا تضيف شيئًا إلى عقله ووجدانه.. إنه يلبس ثياب الغير.. ويتناول طعامه السريع مثله.. ويحاكى قصات شعره.. ويحاكيه فى آخر رقصاته.. ويغنى آخر ألبوماته.. ويقلده فى أسوأ سلوكياته.. أى أنه (يتغرب) عن نفسه ومجتمعه وأصالته تحت شعارات الحداثة والعولمة والتقدم الزائف.

اعترف الشباب بكل ذلك لكنهم يتهموننا نحن ـ الجيل الأكبر ـ بأننا الذين مهدنا وقدمنا لهم كل هذا ..

ويسألنى أحدهم عن دور جيلنا فى ذلك.. ونحاول الدفاع بأن دورنا معكم إيجابى.. لكنه يعتمد أساسًا على قبولكم له.. فنحن كنا جيلاً نحترم أساتذتنا ومعلمينا وكبارنا.. ونستفيد من تجاربهم وأفكارهم.. ولولا اقتناعنا بذلك لما تمكنا من شق طريقنا واستيعاب تلك التحويلات الاجتماعية والسياسية والثقافية خلال نصف قرن من الزمان.. لكن بقى أن تقتنعوا بدورنا معكم.. ففيكم كثرة من الشباب يتمرد على دورنا ويتهموننا بالسلفية والتعقيد.. من حقكم بالطبع أن ترفضوا وتتمردوا.. لكن بشرط أن تكونوا واعين بهذا الرفض وهذا التمرد.. عليكم بأخذ ما ينفعكم منا ومن غيرنا.. ورفض ما لا ينفعكم..

تلك كانت خلاصة هذا اللقاء الحميم بيننا وبين شبابنا الذى ضل طريقه فى متاهات الإعلام والفضائيات..

ثم يأتى د. سيد صبحى أستاذ الصحة النفسية ليؤكد مزيدًا من عوامل القلق لدى الشباب[1]:

---

(١) الشباب وأزمة التعبير: د. سيد صبحى – الدار المصرية اللبنانية ٢٠٠٢م.

يؤكد الدكتور سيد صبحى فى تجربته الميدانية أيضًا أن شبابنا فقد الانتماء.. ويعرف الدكتور سيد عدم الانتماء بأنه ظاهرة نفسية تعبر عن حالة من حالات الحياد العاطفى بالنسبة للشخص الآخر أو بالنسبة للآخرين أو بالنسبة للمجتمع.. وبهذا المعنى تصبح هذه الظاهرة عرضًا مرضيًّا مرادفًا للأنانية لأن الشخص الذى لا يشعر بانتمائه للآخر قد نجده لا يهتم إلا بنفسه.

عدم الانتماء إذن تعبير عن غياب الدافع على أداء فعل معين إلى جانب فقدان الحماس والرغبة فى تحقيق التطلعات والإنجازات.

ويؤكد الباحث أن أسباب هذه الظاهرة لدى الشباب تعود إلى أن بعضهم لا يستطيعون إشباع رغباتهم وتطلعاتهم بطريقة موضوعية وحقيقية، مبنية على قدراتهم وتفكيرهم ينغمسون فى السعى وراء السلع المستوردة والتمحك فى الطبقات العليا.. وتتبع أخبار الكرة.. وما يتعلق بها من مباريات ولاعبين.. وزواج وطلاق نجوم السينما.. وآخر الموضات وتقاليع بيوت الأزياء وكذلك يتابعون بشغف ولهفة ألبومات وقوائم الأغنيات الصاخبة والهادئة فى صخب والتشدق بالألفاظ الغريبة والتى تصل إلى حد البذاءة.. تلك التى قد يتعلمونها من بعض الأعمال المسرحية أو بعض المسلسلات التليفزيونية.. والتى أعدت دون وعى فينزلق الشباب أكثر ويترنح فى هذا الإطار الثقافى غير المواتى وغير الملائم لإعداد الشباب المنتمى.

كما أن الشباب يفقد القدوة الحسنة.. حيث يصاب بخيبة أمل حينما ينهار المثل الأعلى أمامه.. فيفقد الثقة فى القدوة..

بالإضافة إلى إقبال الشباب على ظاهرة العنف والفوضى تلك الظاهرة التى تبثها الأفلام الأجنبية صباح مساء بلا توقف.

ثم يحاول الباحث أن يحدد المسئولية عما يعانيه الشباب من مشاكل ويرجعها إلى الأجهزة والأشخاص والمؤسسات التى تعد مسئولة عن عدم إتاحة الفرصة لهذه المشكلات.. كما أكد الافتقار إلى الإعلام الشبابى السليم..

وفى نهاية هذا البحث توضع بعض الحلول التى تتلخص فى ضرورة توظيف

الوقت بطريقة إيجابية وتعويد الشباب على الحوار المنهجي الحر.. والتمسك بالقيم والهوية..

وربما يجرنا الحديث هنا إلى النظر بعمق إلى ثقافة الشباب اليوم.

فالشباب منقسم إلى فريقين: فريق متطرف ينتمي إلى ثقافة دينية شديدة التعصب وفريق متطرف ينتمي إلى ثقافة غربية شديدة الانفتاح.. ولا نظن أن منطقة الوسط والاعتدال تضم جانبًا كبيرًا من الشباب فكلا الطرفين يمتلك من المغريات ما يجعل كل فريق ينصهر في جانبه بلا وعي.

يقول الشيخ محمد الغزالي[1]: إن كل تدين مع تبلد الفكر والحس هو موضع نظر.. وللعلماء فيه كلام يجب أن يعرف.. فإن محاربة الغش المعنوي أهم من محاربة الغش التجاري.. هناك من يؤمن بالله عن تقليد.. ما أعمل فكرًا ولا أدار بصرًا.. ما قيمة هذا الإيمان؟

البعض يرفضه ولم يمنحه قيمته.. والبعض قبله على إغماض ولم يعد صاحبه كافرًا.

وسواء أخذنا بهذا الرأي أو ذاك فإن المقلد في إيمانه امرؤ من الدهماء لا يقود ركبًا.. ولا يصدر رأيًا.. إنه تابع وحسب..

وفي موضع آخر يقول الشيخ الغزالي[2]:

من خصائص الإسلام الأولى أنه دين يقوم على العقل ويحترم منطقه.. ويبني الإيمان على التفكير الصائب والنظر العميق..

أو كما يقول العقاد: التفكير فريضة إسلامية.. ويحزنني أن أذكر هنا أن أعدادًا كثيفة من المنتمين إلى الدين فقيرة إلى سعة الإدراك والنفاذ إلى الأعماق.. وعمل هؤلاء في ميادين الدعوة يضر أكثر مما ينفع..

---

(١) الغزو الفكري يمتد في فراغنا – محمد الغزالي – دار الشروق ١٩٩٨م.

(٢) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين – محمد الغزالي – دار الشروق ١٩٩٧م.

والمسلم إنسان يضم إلى معرفة كل نافع من شئون الدنيا معرفة أخرى جليلة القدر غزيرة الأجر: كتاب ربه وهدى نبيه.

ثم يقول أيضًا: إن الرغبة فى تكفير الناس وانتقاص أقدارهم وترويج التهم حولهم مرض نفسى بالغ الخبث وأصحابه يتناولهم بلا ريب الوعيد الإلهى.. وإلصاق هؤلاء المرضى بالإسلام أو تصدرهم فى ميدانه لا يغنى عنهم شيئا فأنهم فى الحقيقة غرباء عليه أو عقبات أمامه أو غبن فى مرآته!.

نفهم من ذلك أن هناك فرقًا شاسعًا بين الثقافة الدينية وثقافة التطرف.. ولا ينبغى الجمع بينهما أو الخلط بينهما.. فالتطرف يغذى الطائفية ويبعد الإنسان عن إنسانيته وقيمه وهويته.. ويدفعه إلى الانغلاق والانعزال والنظر إلى الآخر بتوجس على حين تتسع الثقافة الدينية إلى مفاهيم الحياة والعقلانية والحوار المستفيد وتأكيد إنسانية الإنسان.

ويبدو أن أمية الدعاة الثقافية هى التى جذبت الشباب إلى هذه المتاهات والظلمات التى ظن الشباب أنها ملاذ لهم وخلاص من مشاكلهم..

وفى الطرف المقابل.. نحن أمام فريق يحاول أن يهجر ثقافته تمامًا إلى ثقافة الغير ظنًا منه أن هذه الثقافة الجديدة - بقشورها التى يمارسها - هى النموذج الأمثل..

إن هذا الفريق ينقصه الوعى بأمور كثيرة..

- ينقصه الوعى بأن ما يصدر له من وسائل الإعلام الغربية ليس ثقافة ولا هو جوهر ثقافته.. وإنما هو قشرة حضارية زائفة تتعلق ببعض السلوكيات والفنون الضحلة التى لا تضيف له شيئًا..

- إن نقص ثقافة هذا الفريق لا تؤهله إلى الخوض فى أعماق ثقافة الغير.. وانتقاء أجمل وأفضل ما فيها للاستفادة منها إلى جانب ثقافته..

- إن تنكره لثقافته وهويته قائم على الانبهار بما يأتيه عن الغير.. دون النظر العميق إلى ثقافته التى يمكن بقليل من التأمل أن يجد فيه ملاذه ومطامحه.
- إنه ينسى دائمًا أن مستقبل هذه الأمة مرهون بعقله وسلوكياته وأفكاره وعلمه فى عصر لا يرحم المتخلفين..

وبهذه المناسبة.. ينبغى أن نذكر أن كلا الفريقين لا ينتمى إلى هويتنا الثقافية بل يعانون من أمية ثقافية تضر بهم وبعقولهم وبأمتهم.

والأمية فى المجتمع العربى لها مظاهر مختلفة:

- منها الأمية الخالصة أى عدم معرفة القراءة والكتابة.. وتشكل هذه نسبة كبيرة قد تصل إلى ٥٠٪ من مجموع السكان.. والسبب فيها هو إهمال التعليم وجعله أمرًا هامشيًا..
- ومنها أمية المتعلمين.. ويتضح ذلك بشكل مباشر فى تلاميذ المراحل التعليمية وطلاب الجامعة.. حيث يحاصرون بالكتب المنهجية الدراسية التى تبقى فى ذاكرتهم مؤقتًا - حتى يوم الامتحان.. ثم لا يبقى منها شىء بعد ذلك.
- ومنها أمية المثقفين.. خريجى الجامعات الذين يعانون البطالة.. والإدمان.. والفراغ.. ولا يقبلون على القراءة التى هى عماد الثقافة.
- ومنها الأمية النسبية حيث تتضح بين المتخصصين.. فهذا الطبيب ليس له اهتمام ثقافى إلا فى حدود الطب.. وهذا مهندس لا يخرج عن دائرة الهندسة وهكذا..

وشبابنا ينتمون إلى ظاهرة أمية المتعلمين.. وظاهرة أمية المثقفين.. ومن ثم نحن أمام مأزق ثقافى حقيقى بالرغم من وجود كل الوسائل التثقيفية المتاحة من كتاب وتكنولوچيا معلومات وأجهزة تتيح ثقافة رفيعة ووعيًا بدور الشباب المعاصر..

الشباب والاغتراب

ساد مصطلح الاغتراب كتابات كثيرة معاصرة.. خاصة فى المجتمعات الصناعية المتقدمة التى تحكمها المادة ويقل فيها الإيمان واليقين..

وربما نتفق على المقصود بالاغتراب فهو نمط من التجربة الإنسانية يعيش فيه الإنسان ويحس بنفسه غريبًا عن نفسه.. أو غريبًا عن عالمه..

صحيح يتعلق موضوع الاغتراب بعدد من الموضوعات الفلسفية الأخرى مثل الحرية والحب والأمل والإيمان.. ويمكننا لذلك أن نجمل المعانى الشائعة للاغتراب فيما يلى[1]:

أ. انعدام القدرة (العجز).

ب. فقدان المعنى.

ج. غربة الذات.

د. العزلة الاجتماعية.

هـ. الغربة الثقافية.

ولقد كان شباب العالم أكثر فئات الناس إحساسًا بالاغتراب بهذه المعانى.. ولا يجوز لنا أن نجنب شبابنا عن هذا الإحساس..

لكن يبدو أننا فهمنا الاغتراب فى عالمنا العربى على أنه الأخذ من الغرب والتشبه به.. وقصرنا مفهومنا على ذلك.. ولنا عذرنا فى ذلك باعتبار أن المصطلح غربى وليس شرقيًا.. أو عربيًا..

هناك إذن أكثر من معنى للاغتراب يرتبط بالمجال الإنسانى الذى يعايشه..

---

(١) انظر بإسهاب كبير: الاغتراب عند ايريك فروم د. حسن محمد حسن حماد - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٩٥م.

- وأيضًا: الاغتراب د. محمود رجب - منشأة المعارف - الإسكندرية ١٩٧٨م.

- وكذلك كتابات الوجوديين فى ذلك الموضوع.

- فهناك المعنى القانونى للاغتراب ويدل على تحويل ملكية شىء ما إلى شخص آخر ومعنى هذا أن ما هو ملك لى يصبح ملكًا لغيرى غريبًا عنى..
- وهناك المعنى الاجتماعى الذى يدل على الإحساس الذاتى بالغربة أو الانسلاخ سواء عن الذات أو عن الآخرين.
- وهناك المعنى السيكولوجى الذى يدل على حالة فقدان الوعى وعجز أو فقدان القوى العقلية أو الحواس.. وهنا يكون الإنسان عديم الإرادة ومنساقًا بلا وعى..
- وهناك المعنى الدينى الذى يتعلق بانفصال الإنسان عن الله ..

أين شبابنا إذن فى ظل هذه المعانى..؟

إن الشخص الذى يشعر بالاغتراب مريض من الناحية الإنسانية؛ لأنه لا يستطيع أن يتواءم أو يتكيف مع نفسه أو مجتمعه ويتطلع إلى خارج هذا الإطار بزعم أن الوافد أو الآخر أفضل منه.. إنه يعامل ذاته كشىء أو سلعة.. ويفتقد الشعور الأصيل بذاته..

إن التحولات الحضارية المعاصرة سريعة الإيقاع.. تتطلب الملاحقة المستمرة الدائبة.. ربما تضيع فيها إنسانية الإنسان.. لأنه ينصرف عن الإيمان الذى يؤكد على الأهداف الإنسانية ومنها كرامة الإنسان والعقل.. والحب والقيم الروحية..

ويرى الكثيرون أن الإنسان الآلة يستطيع أن يدمر عالمه.. لكنه لا يكون قادرًا على تشييد مجتمع أفضل منه.. فثورة الآلات ثورة عدمية.

ونرى أن هذه الرؤية مبالغ فيها إلى حد كبير. إذ أن ثورة العلم هى التى تخرج العلماء والعباقرة وتقود البشرية إلى الأمام.

وربما قصد من هذه الرؤية المغالاة فى المادية والبعد عن الروحانيات.. والحط من قيمة المشاعر..

وهذا ولا شك ما نخاف على شبابنا منه..

إن شبابنا حينما يأخذ بقشرة هذه الحضارة ومظاهرها.. يحس بالفراغ الداخلى لأن هذه القشرة تتسلل شيئًا فشيئًا إلى سلوكياته ولسانه وعقله وقلبه..

فيحس أنه (غريب) عن ذاته الأصلية.. غريب عن مجتمعه الذى نشأ فيه.. غريب عن قيمه ومبادئه..

ها هو شبابنا اليوم ينصرف عن القراءة.. إلا القليل منهم..

إنه يعانى أمية شديدة الوطء على عقله ووجدانه..

لقد انصرف إلى الفن الردىء.. والزعيق والضوضاء.. والملابس الضيقة.. والإقبال بتعصب على مباريات كرة القدم.. حتى أصبحت . على حد قول أحد المعلقين . قوت الشعب اليومى..

فهل يرضى شبابنا أن يكون قوته اليومى هو كرة القدم.. لا أحسب أنه سيرضى بذلك..

إنه أيضًا يعانى من اعوجاج اللسان.. ويجد فى التحدث باللغات الأخرى ميزة وحضارة.. وينظر إلى لغته العربية.. نظرة دونية.

والشباب معه حق فى ذلك خاصة حينما يرى لافتات المحلات وأسماء الشوارع تتخذ أسماء أجنبية.. وتتقلص الأسماء العربية.

وحينما يرى إعلانات التليفزيون تؤكد ذلك كل ساعة.. بل تعلن مسابقات تافهة يسرع إليها الناس - والشباب خاصة - فى اختيار أفضل أغنية . وأفضل ألبوم . وأفضل رقصة..

وأحسب أن هذا كله اغتراب.. أى بُعد عن الذات الأصلية وعن المجتمع.. وعن الإبداع والفن الأصيل.

ترى ماذا نفعل اليوم والشباب منصرف . أكثره . إلى هذه الأضواء الزائفة..

وفى الطرف الآخر موجات التعصب الدينى والانغلاق..

إنها قضية الساعة بلا شك.. تقع مسئوليتها على كاهل المؤسسات الدينية ومؤسسات التربية والتعليم فى مجتمعنا.. وعلى مؤسسات الإعلام والثقافة.

وأولاً وأخيرًا على الأسرة العربية التى صارت تتشبه بالأسرة الغربية فى سلبياتها.

خاتمــة

عقد فى النصف الأول لعام ٢٠٠٣م مؤتمر المثقفين فى المجلس الأعلى للثقافة.. وبدلاً من مناقشة محنة الثقافة العربية اليوم.. ثار جدل حول إذا كان هذا المؤتمر مؤتمرًا للمثقفين أو مؤتمرًا للثقافة.

هكذا دأبت الأقلام العربية على الجدل أو النقاش الذى لا يمس جوهر قضايانا الثقافية لكنه جدل كلما امتد وتجدد.. أبعدنا عن قضايانا.

ويبدو أن جانبًا من محنة الثقافة والمثقفين لدينا هو شهوة الكلام والجدل بلا طائل.. ولو أننا أعطينا جانبًا صغيرًا من الوقت لهذا الجدل وأعطينا للفعل أكثر اهتمامًا.. ما كان هذا حالنا اليوم..

إن لدينا من يغرقون بالتشكيك فى كل شىء ابتداء من النوايا حتى قمة الفعل.. وليتذكر القارئ أى موقف ثقافى مر علينا دون أن ينقسم المحللون بين موافق ومعارض.. وبين مؤيد ومنفى.. تلك هى عادتنا إزاء أى موضوع ثقافى.. إنه الانفعال بلا تفكير أو منطق سليم.. ومن ثم تضيع من أيدينا كل الأوراق التى كان من الممكن أن تحل مشاكلنا الثقافية.

نخلص من هذا أن جانبًا كبيرًا من المحنة نصنعه نحن.. والجانب الآخر يصنعه الآخرون ترتيبًا على ما نصنعه نحن..

ويبدو أن عالم اليوم منقسم إلى فكرين واضحين.. فكر يصنع مصير مجتمعه بنفسه.. وفكر آخر يرتضى أن يصنع الآخرون مصير مجتمعه.

وقد حاول المثقف العربى منذ منتصف القرن الماضى أن يصنع مصيره بنفسه.. لكن قوى كثيرة واجهته بالقهر والعنف والسجن والعقاب.. وقد اختلف المحللون حول هذا الموقف وما إذا كان المثقف قد عاش (مراهقة) ثقافية فاندفع بلا منطق أو علم.. فلاقى ما لاقاه من الصد والنعت.. أم أن السلطة لم يرقها أن يشاركها صنع القرار أصحاب العقول الحالمة.. حيث تنظر إليهم أنهم يعيشون فى أبراج عالية..

ومن ثم انطفأ حلم المثقف ومشروعه الكبير..!

وكان من المستحيل على المثقف أن يقف موقف المتفرج من قضايا وطنه.. وبالرغم من دعاوى الحداثة والتغريب التى تسللت فى السنوات الأخيرة إلى قلب المجتمع العربى فإن وعى المثقف بدوره لم يغب غيابًا كاملاً.

ولهذا واجه المثقف الواعى بدع الحداثة والتغريب.. وسخر من هؤلاء الذين يرمونه بالسلبية والمحافظة لأنه يهتم بواقع أمته المتردى.

لقد انغلق أدعياء الحداثة والتغريب على ذواتهم ظنـًا منهم أن خلاصهم النفسى يتمثل فى هذا الانغلاق.. وأن الواقع المتردى لا يدخل إلى دائرة اهتمامهم.

ولم يكن غريبًا على هؤلاء الأدعياء أن يتعالوا فى مواقفهم الحداثى على المتلقى وأن يعلنوا . باسم التمرد ـ الخروج على المألوف.. وإسقاط المقدسات والتابوهات على حد قولهم.. والإعلان عن لغة الجسد.. لغة الفن والأدب والشعر والخيال ـ والنظرة الدونية لتراث اللغة العربية ولآدابها عبر أحد عشر قرنـًا من الزمان.. وتكون النتيجة.. تسطيح المشروع الثقافى العربى.. أو تعلقه بالمشروع الغربى.

علينا إذن أن نفيق على واقعنا الثقافى.. ونضع . بأنفسنا . تلك الرؤى التى تشخص أوجاعه.. وتضع حلولاً له وخلاصًا لمحنته.. ولا ننتظر حتى يفعل لنا ذلك الآخرون.. بل علينا أن ندرك تمامًا أن ما نفعله نحن لأنفسنا مهما تعثرت فيه

خطانا.. أفضل وأجدى مما يفعله لنا الآخرون؛ لأنهم لن يفعلوا لنا شيئًا بعيدًا عن دائرة أطماعهم ومشروعهم الخاص.

فهل نحن . بعد . مستعدون للارتماء فى أحضان الآخر لمجرد أنه يمتلك مشروعًا مبهرًا يشبع حاجاتنا . دون النظر إلى خفايا هذا الوجه وخطره على ثقافتنا..؟

إنه السؤال الذى ينبغى أن نفكر فيه جيدًا وفى أذهاننا تلك الخيوط المتشابكة من عناصر ثقافتنا التى تتجاذبها أطراف كثيرة ما بين فكر واع عربى أصيل.. وفكر منفلت متغرب دخيل..

وأخيرًا وليس آخرًا.. فإن المشروع الثقافى العربى ليس مستحيلاً إذا أخلصت الجهود والضمائر والأفكار.. وتآلفت القوى المتناحرة من أجل قيم الهوية الثقافية العربية..

والله الموفق

[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

سوق عكاظ

أجل الآن هذا الحداء

تتوخى القوافل أن تتلكأ فى الظلِ

حتّى يتم لقاء المحبين..

حتّى أرى الشعراء يميلونَ نحو القباب

قبيل الرحيل

أجل الآن هذا النداء العليل

إنها السوق تنفض.. هل من سبيل

والقصائد تنزف أحرفها فى التلول

وثأر جديد يثور

وثأر قديم يزول

أجل الآن هذا الصراخ..

إنها السوق مهد الحكايات

تعصف حيناً بفرسانها الفاتحين

وحيناً تفاخر بالقاعدين

ولا شىء يبقى سوى دمعات الصغار

ــ بنا.. نبك ذكرى الديار

ونبك انتظار النهار

وأوجاع من يرحلون

إن قيسًا مع القاعدين

وليلى مع النائحين

ورزء جليلة ما زال ينبت فى الرمل

وردًا.. وصفصافة.. وأنين

وبين الخنادق ألف قتيل

ــ أجل الآن ما سوف يأتى

وما سيكون..

أجل الآن هذا النواح.. وأوقف رياح الحنين

وحدق بأقدامنا

بعيون الصبايا

بكل الجرار التى فرغت على صخرة لا تلين

إنه الوجع المتوقد فى العين

والهلع المتجدد فى القلب

والصلوات.. الفروض.. النوافل..والسهو

والرعشات بصدر الصغار المهانين

ــ لن يقبل الله منا التبتل

والرق فى السوق ما زال نهرًا يسيل

وأشجارنا تحتفى بالعويل

وسوط يهوذا

وحبل المشانق.. والقهر

ينتظر القادمين

* * *

ــ كان فى البدء هذا الشهاب المبين

كان بين يدينا ورود اليقين
إنه اليوم تلعقه فى الخراب.. الكلاب
إنه اليوم بدء.. ودرب.. وأى انتهاء
أجل الآن هذا الحداء
وابدأ الآن سوقًا نجادلُ فيها طويلا
بلا شعر.. أو قافية..
نجادل بالبندقية
بالسوط..
بالحجر.. الجمر..
بالسهر.. الصحو.. فى فلوات الشتاء

* * *

لست أطلبُ حرب البسوس.. ولا صلفَ الأغبياء
ولسنا نحاربُ من أجل ذيل بعيرٍ
ونعل حقيرٍ
وشروى نقيرٍ
وصيحةِ فخرٍ بوجهِ أمير
نحارب من أجل ما ضاعَ منا
وما بيع منا
ومن جاعَ منا
ومن.. !
لست أبكى طلول الحبيبة
أو حَصَيات الدِّمَن
أجل الآن ذكرَ المحن..

وابدأ السوق ــ لا تستمع للوصايا ــ
وأسقِط جدار الوثَن..
قد مضى زمنُ الجاهلية ــ فوق الرمالِ ضحايا ــ
وكلُّ المفازات تنكرُ لونَ العفَن..
والذى فى عيونِ الصغار
من القهرِ.. والموتِ
والأمنيات..
يستحق الثمن..

* * *

مؤلفات الشاعر

أحمد سويلم

الأعمال الشعرية

- الطريق والقلب الحائر	دار الكاتب العربى	١٩٦٧
- الهجرة من الجهات الأربع	مؤسسة التأليف والنشر	١٩٧٠
- البحث عن الدائرة المجهولة	دار الناشر العربى	١٩٧٣
- الليل وذاكرة الأوراق	مكتبة مدبولى	١٩٧٧
- الخروج إلى النهر	هيئة الكتاب	١٩٨٠
- السفر والأوسمة	دار الشروق	١٩٨٥
- العطش الأكبر	مكتبة مدبولى	١٩٨٦
- الشوق فى مدائن العشق	هيئة الكتاب	١٩٨٧
- قراءة فى كتاب الليل	دار الشروق	١٩٨٩
- الأعمال الشعرية ج١ (٨ دواوين)	هيئة الكتاب	١٩٩٢
- شظايا	دار الشروق	١٩٩٣
- الزمان العصى	هيئة الكتاب	١٩٩٥
- الرحيل إلى المدن الساهرة	هيئة قصور الثقافة	١٩٩٧
- لزوميات	هيئة الكتاب	١٩٩٧
- الأعمال الشعرية ج٢ (٥ دواوين)	هيئة الكتاب	١٩٩٩
- جناحان إلى الجوزاء	دار قباء	٢٠٠٠
- رعشة فى الأفق	دار الشروق	٢٠٠٢
- صرخات تحت قبة الأقصى	هيئة الكتاب	٢٠٠٣

المسرح الشعرى

- أخناتون	دار المعارف	١٩٨٢
- شهريار	هيئة الكتاب	١٩٨٣
- الفارس	هيئة الكتاب	١٩٩٥
- الأعمال المسرحية (٣ مسرحيات)	هيئة الكتاب	١٩٩٩

دراسات

- شعرنا القديم رؤية عصرية	المجلس الأعلى للثقافة	١٩٨١
- المرأة فى شعر البياتى	هيئة الكتاب	١٩٨٤
- أطفالنا فى عيون الشعراء	دار المعارف	١٩٨٥
- محمد الهراوى شاعر الأطفال	المركز القومى لثقافة الطفل	١٩٨٦
- التربية الثقافية للطفل العربى	مركز الكتاب للنشر	١٩٩١
- مسلمون هزموا العجز	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩١
- عظماء أغفلهم التاريخ	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩٣
- مجانين العشق العربى	أخبار اليوم	١٩٩٣
- الإعلام الشعرى فى التراث العربى	هيئة الكتاب	١٩٩٥
- الفكر الإسلامى فى ثقافة الطفل العربى	مركز الكتاب للنشر	١٩٩٥
- ديك الجن	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩٨
- محمود سامى البارودى	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩٨
- قيس بن الملوح	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩٨
- عنترة بن شداد	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩٨
- شعراء العمر القصير (٢ جزء)	الدار المصرية اللبنانية	٢٠٠٠
- نوادر الشعراء بين الظرف والذكاء	الدار المصرية اللبنانية	٢٠٠٣
- الشعراء والسلطة	دار الشروق	٢٠٠٤

الأطفال

- حكايات من ألف ليلة وليلة (٥ حكايات)	دار الشروق	١٩٨٠
- عشر مسرحيات شعرية	مؤسسة الخليج العربى	١٩٨٧
- حكمة الأجداد (قصص ٣٠ مثلاً عربيًا)	مؤسسة الخليج العربى	١٩٨٩
- أبو العلاء المعرى	دار المعارف	١٩٩٣
- مدائن إسلامية (٨ كتب)	دار سفير	١٩٩٣
- طفولة عظماء الإسلام (٨ كتب)	دار سفير	١٩٩٤
- أتمنى لو (قصائد)	هيئة الكتاب	١٩٩٤
- ديوان الطفل ما قبل المدرسة	التربية والتعليم	١٩٩٥
- بستان الحكايات (١٠ قصص شعرية)	قطر الندى	١٩٩٦
- ديوان الفتى العربى	دار الشروق	١٩٩٧
- تعال نغنى حروف الهجاء	المكتب العربى للنشر	١٩٩٧
- ديوان الطفل العربى	الدار الثقافية	١٩٩٨
- أحب أن أكون	الدار الثقافية	١٩٩٩
- أنا وأصدقائى (شعر)	هيئة الكتاب	٢٠٠٠
- خمس مسرحيات شعرية	دار الكتاب اللبنانى	٢٠٠٢
- واحة الحيوان (قصص شعرية)	قطر الندى	٣٠٠٢
- فلسطين عربية (شعر)	نهضة مصر	٢٠٠٣
- يقول المثل العربى (شعر)	دار الشروق	٢٠٠٣

* * *

[illegible]

[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]		
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]		
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]		
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]

الفهرس

رقم الإيداع ٢٨٢٧/ ٢٠٠٤

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-09-1055-4

مطابع آمـون

٤ الفيروز من ش إسماعيل أباظة
لاظوغلى - القـاهرة - ج م ع
ت : ٧٩٤٤٥١٧ ـ ٧٩٤٤٣٥٦